السنة السادسة - العدد الخامس - يناير 2007م

الدار بوضع اليد !

قصص قصيرة

(الطبعة الأولى)

د. حسين علي محمد

هبة النيل العربية للنشر والتوزيع
42 ا شارع جول جمال . المهندسين
تليفاكس : 3036301

بسم الله الرحمن الرحيم

قصص قصيرة

تأسست في يوليو 2001م

المراسلات: ديرب نجم ــ شرقيـــــة ــ مجدي محمود جعفر.

سلسلة كتب أدبية تصدر بمعاونة سلسلة «أصوات مُعاصرة»

رقـــم الإيـــداع : ٢٣٠٤ / ٢٠٠٧
I.S.B.N. : 977 - 301 - 127 -9

الدار بوضع اليد

في آخر زيارة لقريتك (قرية «السلام») التي لم تكن مُسالمةً أبداً معك، قالت سميرة، وهي تحرص على أن تبدو أساورها من يديْها السمينتيْن:

— الدار بوضع اليد، ولن أخرج منها.

وقالت وهي تبتسم:

— لو أنصفتَ لتركتَ نصيبَك في الدار لي!

— نصيبي؟

أول مرة ترى — يا أستاذ حسني — امرأةً في «السلام» تُطالب بنصيبها في دار أبيها!

.. وجاءك الحاج محروس خطّاب الذي يقول عن والدتك إنها عمته ليراودك على بيْعِ بيتك .. وليتفق معك على قتلك! .. فهل تبيع البيت الذي بنيْته من ثلاثة أعوام مع والدك طوبةً طوبةً؟!! .. قبل أن يموت بشهرين.

جاء إليْكَ محروس الأصفر — كما يسميه أبناء قريتك .. — فلم يجدك قد عدت من مدرسة الأمة الإعدادية بالزقازيق، التي تُدرِّسُ فيها الرياضيات، فاستعار كرسيا من «سمسم» الساعاتي الملاصق لشقتك التي استأجرتها من الباطن — وجلس أمام البيت!

حينما رآك الأصفر اعتدل واقفاً، وقال:

ـــ أنا منتظرك من ساعة يا أستاذ حسني!

أنت لا تحب هذا الرجل .. رغم أنه من جيل أبيك، وأنت من جيل ابنه «بدران» الذي رسب عامْين في الصف الأول الثانوي، فالتحق بالكُتّاب العسكري، وكرر مسيرة أبيه الذي لم يتخطّ الشهادة الابتدائية في الأزهر الشريف .. لكنه عمل بعد ذلك «مُحفظا للقرآن الكريم» بمعهد الفتيات بالقرية!

قلت وأنت روحك في أنفك:

ـــ خير .. إن شاء الله يا حاج محروس!

وكأنك تقول له بالعربي الفصيح: لا يأتي من ورائك خير أبداً يا حاج محروس!

بنتك سمية ذات الأربعة عشر شهراً مريضة من خمسة أيام، كانت كالوردة تملأ حياتك بهجة، لكن الساقيْن كفتا عن الحركة، والدكتور جودة عمار طبيب الأعصاب الشهير بالزقازيق .. قال لك أمس في جرأة يُحسَدُ عليها: لا أمل في الشفاء! ولكن من الممكن أن يأتي العلاج الطبيعي معها ببعض الثمار، فتستطيع أن تتحرك على كرسي ذي عجلات وتخدم نفسها بعد مدة من العلاج قد تطول أو تقصر!

قلتَ في حزن:

ــ هل ستعيشُ سمية عرجاءَ مشلولةً؟!

قال الحاج محروس الأصفر:

ــ أخواتك بعن البيت! و لم يبق إلا أنت!

ــ أي بيت؟

ــ بيتكم في «السلام».

ابتلعْتَ ريقك وقلتَ في غضب تُحاول أن تكتمه:

ــ كيف بعن .. وعقد ملكية البيْت معي؟!!

ــ أنت متعود على ألاعيب أخواتك البنات، اللاتي تركت لهن القرية، وأقمتَ في البندر.

ــ لمن بعن؟!

ــ فهيمة باعت لسميرة، وحمدية لسوسن.

أنت وسميرة وفهيمة من أم، وحمدية وسوسن شقيقتان!

أخليتَ في وجهك مكاناً للغضب:

ــ وكيف صار شكلُ البيت؟

ــ كما هو !!

ــ كيف؟!

ــ أنت تعرف أن البيت واسع .. مبني على قيراط ونصف، ويمكن تقسيمه!

وحدك تبصق في منديلك الورقي بصوتٍ عالٍ، فأضاف وعيناه في الأرض:

ـــ سوسن أخذت الحجرتين الشرقيتين والزريبة، وفتحتْ لهما باباً في الجهة البحرية.

ـــ وسميرة؟!

ـــ سميرة تقيم في البيت كما تعلم!

خرجت منك ضحكة مجروحة! .. وتذكرتَ أنها قالت لك بلهجةٍ سوقيةٍ حينما طلبتَ منها الخروج من البيت:

ـــ نعم يا حبيبي؟ .. لن أخرج أبداً .. الدار بوضع اليد، ولن أخرج منها.

رآك الأصفر مشغولاً فأضاف، وكأنه يذكّرك ما نسيت:

ـــ أنتم إخوة من أم واحدة، هي عمتي «خديجة» رحمها الله.

وعاد يؤكّد على كل حرف:

ـــ قفا أنت وفهيمة بجوار سميرة، حتى تستريح عمتي «خديجة» في قبرها!..

وسكت هنيهة قبل أن يسأل:

ـــ ما رأيك؟ ..

لم ترد، كانت الأشباح تتراقص أمام عينيك، ولوْ كانت سميرة وفهيمة أمامك لقتلتهما في الحال!

عاد يتحدث في كلمات متقطعة:

ــ سميرة تقيم في البيت كما تعلم من سنتين!

ــ أنا الذي سمحت لها بالإقامة في البيت بعد أن انعزل زوجها عن أسرته .. وليتني ما فعلت ...

تذكّرت أنك تركتَ البيْتَ بعد أن تزوّجت بستة أشهر، حينما نقلتَ إلى مدرسة الأمة بالزقازيق، فكان من الأسهل لك أن تنتقل إلى ديرب نجم، وتسافر يومياً إلى الزقازيق، بدلاً من أن تبقى في «السلام».

توقفت عن الكلام، فزاغت عيناه، وهو يرى أن مهمته المقدسة في إخراجك من البلد لم تتم!

وجد عينيك محمرّتين، فقال:

ــ أستاذ حسني .. هل أجيء لك مرة أخرى؟ .. هل جئتُ لك في وقتٍ غيرِ مناسب؟

قلتَ في غلظة:

ــ البنت التي لم تتم عاماً ونصف عام مشلولة.

قال في إشفاق حقيقي:

ــ أنا آسف يا أستاذ حسني .. لم أعلم .. كان الله بعونك .. متى تم ذلك؟

ــ من خمسة أيام.

ـــ ربنا يشفيها!

ـــ لكن الساقيْن كفتا عن الحركة!

ـــ أنا آسف يا أستاذ حسني .. يمكنني أن أمر عليك في يومٍ آخر.

وأدار ظهره ومشى عدة خطوات، لكنه عاد:

ـــ أستاذ حسني .. ليتك تذهب ببنتك للدكتور أسامة علوان في القصر العيني .. فهو أستاذ كبير في الأعصاب .. سأرسل لك ورقة بعنوانه حينما أعود للسلام .. ذهبتُ له عدة مرات مع بعض المرضى من أقاربنا.

ـــ لا ترسل، فأنا معي عنوانه، وسأذهب له غداً.

ـــ بالتأكيد؟

ـــ نعم، لقد طلبتُ إجازة من المدرسة لآخذ البنت وأذهب له.

قال بصوت منخفض، قبل أن يُدير رأسه للطريق الذي سيسلكه عائداً دون أن يخلع جذرك من القرية:

ـــ أنا آسف يا أستاذ حسني .. أنت تعرف أنني أقف مع سميرة بنت عمتي .. ويهمني أمرُها.

قلتَ له والقرف يُضمِّخُ كلماتك:

ـــ أنا أيضاً ابن عمتك يا حاج محروس!

لم تحب أن تتجادلَ معه، وانطلقتَ للشقة التي يستأجرها زميل لك سافر إلى ليبيا بعشرة جنيهات، واستأجرتَ حجرتيْن منها بأربعة جنيهات، بعد أن كدّس أثاثه في حجرتين من الشقة وأغلقهما!

لحقك الحاج الأصفر وقال:

ـــ أريد كوب ماء .. حلقي جف من الحزن على ابنتك الصغيرة .. أريد أن أراها أيضاً لأطمئن عليها.

ورفع يده متمتماً بصوت دعاءٍ خفيض: «ربنا يشفيها».

ـــ سمية ليست موجودة .. هي وأمها عند حماتي .. لأن البنت لا تجعل أمها تنام في الليل!

ـــ أشربُ ماءً إذن .. وأجلس معك خمس دقائق!

دخلتَ الشقة وأنتَ متعب يتبعك الحاج محروس الأصفر بخطواته الدؤوب .. وجدتَ المذياع مفتوحاً على إذاعة القرآن الكريم .. يبدو أن زوجتك نسيته مفتوحاً حينما خرجت بعدك تحملُ البنت إلى شقةِ أمها ثم تذهب لمدرسة التجارة الثانوية للبنات التي تعملُ مدرسة لمادة المُحاسبة بها ..

يا كم تعبتَ يا حسني من الساقية التي تدورُ فيها كالثور!

تخرج كل صباح في السابعة إلا ربعاً من ديرب نجم لتذهب إلى مدرستك في الزقازيق التي تبعد عشرين كيلاً عن ديرب نجم .. وتدريسك في الزقازيق حرمك من الدروس الخصوصية في مادة

الرياضيات .. فلم تشعر بوفرة أبداً رغم أنك مدرس من أربعة أعوام .. الثلاجة عطلانة من أسبوعين، والبنت مريضة، لا شك أنك ستستدين خمسة عشر جنيها لتكون معك وأنت ذاهب للطبيب غداً .. رحماك يا رب!

أجلستَ الأصفر في الصالون، وأحضرتَ له كوب ماء من الصنبور.

خلع حذاءه، وتنحنح:

ــ ليتك تعمل خيراً .. وتبيع نصيبك لسميرة يا أستاذ حسني!

تفلت يساراً على الأرض في قرف حتى يحس بجرمه في حقك. لماذا يريد هذا الرجل أن يخلعك من القرية؟ .. ابتسمت له ابتسامة صفراء كلقبه الذي يحمله على كتفيه:

ــ أنت يا حاج محروس تريد أن تقتلع جذوري من السلام .. ما مصلحتك في ذلك؟

قال في وقاحة:

ــ سميرة ابنتي وابنتك!

ــ هي ليست ابنتي .. هي أكبر مني بعامين .. وحينما طلبتُ خروجها من البيت في آخر زيارة ردَّتْ بوقاحة، وقالت:

ــ الدار بوضع اليد، ولن أخرج منها.

قال متراجعاً:

ـــ فهيمة شقيقتكما الكبرى باعت نصيبها لسميرة .. بع لها أنت الآخر .. أنت ابن حلال!

وكأنك ستكون ابن حرام إذا لم تبع لسميرة!

نطقتَ في استسلام، وكأنك ترفع الراية البيضاء:

ـــ هذه أول مرة في قرية السلام يخرج الرجل من دار أبيه لتقيم فيها البنت!

لم يعلق على ذلك، بل قال وكأنه يلقي حجراً:

ـــ هل قلتُ لك السعر؟!

ـــ لا .. للأسف.

ـــ أنت ستأخذ مائة وستين جنيها، فقد قدرنا السدس بثمانين جنيهاً، وأنت لك السدسان.

قلتَ وأنت تتثاءب وتخلع رجليك، وتمدهما على المنضدة أمامك، ولا تأبه بنظراته الغامضة التي لا تكشف عن معنى!:

ـــ موافق يا حاج محروس .. لكن لتتذكر دائماً أنك أنت الذي خلعتني من القرية!

قال في برودة يُحسد عليها:

ـــ أنت تقيم في البندر .. وتعمل في الزقازيق .. وإقامة سميرة في البيت أفضل من إغلاقه! .. حينما تجيء للقرية في عيد أو عزاء ستجد الدار مفتوحة!

أضاف وهو ينظر إلى النافذة:

ـــ هل تجيء إلينا غداً بعد أن تعود بالبنت ـــ شفاها الله ـــ من القاهرة لنكتب العقد؟!

قلتَ في ضعفٍ وانكسارِ من يفقد بيته للأبد:

ـــ على بركة الله .. سأجيء يوم الجمعة في العاشرة صباحاً لأوقع لك العقد، بعد أن آخذ النقود على داير المليم الواحد.

ابتسم، وهو يحس بنشوة انتصار:

ـــ كنتُ أقول دائماً إن الأستاذ حسني ابنُ حلال .. وسيبيع نصيبه في البيت لشقيقته سميرة!

لم تعقب، فأضاف:

ـــ نصلي الجمعة معاً، ثم نتناول الغداء في بيتنا.

وقال كأنه يذكرك بصديق عزيز:

ـــ بدران يسلم عليك .. هو في إجازة الآن!

قلتَ بصوتٍ لا أثر للمجاملة فيه:

ـــ بل أُصلي في ديرب نجم، لأن زميلاً لي من القناطر سيزورني، ويُصلي معي الجمعة.

وكأنك نسيت شيئاً عظيماً، ذكرك به:

ـــ بدران يهديك السلام.

ـــ بلغه تحياتي واعتذاري عن الصلاة والغداء عندكم.

لم يُبدِ تصميماً على دعوته للغداء!!

واستأذن محروسُ الأصفر منصرفاً، وهو يحس أنه قام بدور بطولي من أجل سميرة بنت عمته خديجة وزوجها صبري الذي يعمل في ليبيا ويُرسل لها النقود لتشتري نصيب كل أخوتها في دار أبيها لابنهما هيثم، وبنتهما الرضيعة شريهان .. وكأنك يا حسني لستَ ابنَ عمته!

أغلقتَ المذياع .. ووضعت مخدة تحت رأسك .. على كنبة الصالون.

وحاولتَ أن تنام!!

الرياض 2005/3/30م

ما أجملها!

هذا أول عيد فطر يقضيه في قريته بعد رحيل زوجته التي لم تكن تطيق مجرد ذكر اسم القرية!

أصبح «عدلي منصور» يقسم وقته بالعدل بين المنصورة (التي كان يعمل فيها وكيلاً لوزارة الزراعة) وقريته.

منذ ستة أشهر ماتت زوجته «آمال» التي لم يُعقّب منها، فقرّر أن يعيد اتصاله بقريته.

كانت المرحومة تكره القرية، التي تمتلئ بالحفاء والبعوض، ولا تسمع فيها شيئاً «يسر القلب»، وتكره أخته الوحيدة «أم العز»، لأنها تحرضه على الزواج — قبل أن يمر العمر — لإنجاب وريث؛ يحمل اسم العائلة، ويرث الفدادين العشرة التي ورثها «عدلي» عن والده!

عاش مع المرحومة ثمانيةً وعشرين عاماً .. لم يكن يأخذ عليها إلا كراهيتها لقريته!

صلى العيد في المسجد وعاد إلى بيته القريب.

اكتشف وهو يُصافح الرجال بعد الصلاة أنه لا يعرف إلا القليل منهم، وأن الكثير من أبناء جيله، قد ذهبوا للعمل في الخارج، أو رحلوا من هذه الدنيا!

ظلَّ البيتُ مهجوراً ثمانيةً وعشرين عاماً .. أخيراً أحضر بعض الأثاث من الفيلا التي بناها في المنصورة إلى بيته في القرية، وصار يتردّد عليه .. في الأعياد المواسم والمناسبات الاجتماعية التي كان لا يحرص عليها أيام زوجته!

يُهاتف شقيقته «أم العز» وهو في المنصورة، فترسل ابنتها الموظفة بإدارة التربية والتعليم — والتي لم تتزوّج بعد — لتُجري لمسات على البيت قبل أن يجيء خالها وكيل الوزارة.

أربع حجرات واسعة يحتويها البيت، وحظيرة، ودورة مياه.

لا ينقصه — هو والبيت — كما تقول «أم العز» إلا امرأة تعتني بهما، وتُنجب له «الوريث»!

جلس وحيداً في الحجرة البحرية .. ورأى عصافير تتقافز فوق الشجرة العجوز التي زرعها والده أمام البيت منذ ثلاثين عاماً .. وفكر .. من الغد سيهتم ببعض الأشجار في حديقته الصغيرة التي زرعها ابن أخته.

لا أحد يمرُّ عليه .. أو يجلس معه.

بلمحة عابرة تذكّر أن هناك في البيت المقابل امرأة!

إنها «وردة»، ابنةُ خاله.

ما أجملها!

كانت القرية لا تعرفُ بنتاً أجمل منها.

كانت أجمل البنات الست في فصلنا في المدرسة الابتدائية .. أيام الأستاذ صابر عبد الحميد رحمة الله عليه!

كانت في مثل عمره، لكنها لم تُكمل تعليمها، لأنها تزوجت ابن عمها في الرابعة عشرة، وأنجبت له خمسة أولاد!

زوجها — ناظر المدرسة الثانوية السابق — مات من خمسة أعوام تقريباً.

حدّث «عدلي» نفسه:

— إن «وردة» لن تنجب لك الوريث .. هي في الرابعة والستين، مثلك تماماً .. ابنها الصغير «عامر» في السنة الأولى بكلية الصيدلة!

— أولاد «وردة» تزوجوا جميعاً ولم يبق إلا «عامر»، وأصبحت المرأة وحيدة .. يمكنك أن تزورها بين الفينة والأخرى .. وتسترجعان ذكريات أيام الطفولة!

— أنت لن تتزوّجها! .. استشرها في أن تبحث لك عن امرأة في الخامسة والثلاثين .. لا يهم إن كانت بكراً أم عزبا!

— وما الضير في الزواج منها إذا كانت مازالت جميلة؟

...

شرب كوب الشاي في ثلاث جرعات .. اكتشف أنه بارد فقد أعدته «عايدة» ابنة أخته قبل صلاة العيد ..

في دقائق زار أخته وبعض الأقارب ليتخلّص من جملة واجبات أول أيام العيد .. ثم اتجه إلى بيت «وردة».

اكتشف أنها وحدها في البيت.

اقترب منها، صافحها.. قدّمت له بعض البسكويت والشاي. أضاءت الحجرة فاكتشف أنها بلا رقبة تقريباً، أصبحت بدينة جدا، غير قادرة على الحركة. وعرف أن ابنة جارتها هي التي أعدّت الشاي!

رحبت به ترحيباً حارا .. ولم تُنزل عينيها عن وجهه.

زمن؟!

هل يُكلمها عن رغبته في الزواج من امرأة متوسطة العمر؟

رأى أن أسنانها قد سقطت جميعاً، وحدّثته عن مرض السكر الذي أصابها، وكاد أن يضطرها إلى بتر رجلها اليمنى، ولكن الله ستر!

وحدّثته عن عقوق الأولاد، وأن أزواجهم أخذهم إلى البلاد البعيدة ..

حاول النهوض فلم يستطع، أحس بثقل رجليه .. استأذنها في الرحيل، أمسكت يده وهي تُحاول الوقوف .. والبسمة تغمر وجهها.

عثرت رجله .. فوقع أمامها على الأرض .. وتعجّب عندما وجد أخته «أم العز» تُمسك يده محاولةً إقالته من عثرته!...

الرياض 2004/10/1م

نوال تقرأ الحقول

(قصة من التغريبة اليمانية)

دارت الطرق المتعرجة نحو الشمس، ولم تُدرك الشمس ولا القمر .. هاهي «نوال» تقتربُ من الخامسة والأربعين .. ولم تحمل في أحشائها ثمرة! .. "يا لخسرالها في يقظتها وفي منامها!".

توشك فترة الخصوبة أن تمضي، وتترك خلفها الجفاف والعقم!

درست نوال حتى الثالثة في مدرسة المعلمين في قريتها، ثم تركت الدراسة لتتزوّج ابن خالتها، وهي في السادسة عشرة، وترحل معه إلى قريته البعيدة.

كان هذا من تسعٍ وعشرين سنة!

كانت متمردةً على الناس والحياة في أرضِ بيت الفقيه، فرفضتْ ابن عمها وتزوجتْك يا عبد الولي، وعاشتْ معك في الوصاب السافل بناحية ذمار، حيثُ الجبال المتراصة، يسكبُ عليها الغروبُ صفرة الشفق، والسحب المعتمة تتراكض في حيوية لافتة .. تعد بالأمطار!

لكنك تتركُها وهي الغريبة وحيدةً خلف البقرةِ والمحراث، تشق الخط المعتم .. تنتظر هطول الأمطار لتنبت البذور التي وضعتها بيديها المخضبتيْن! .. تتركُها وتعملُ حارساً لمبنى في صنعاء، وتعودُ كلَّ شهرٍ لتقضي معها ليلةً أو ليلتين!

تعدُّ «نوال» الأيامَ والليالي يوماً فيوماً.. وليلةً فليلةً ..

كيف لا؟ .. والحلم الأجمل .. لا يكتمل إلا مع بزوغ فجرك وعودتك البهية.

تحلمُ دائماً بالخضرة الوارفة ..

وهي تتأمل البذور الصغيرة النابتة، في قطعة أرضك الصغيرة التي ترعاها في غيابك .. وجدت زوجاً من حمام يناغي أحدهما الآخر، وعلى جنبات الأرض وجدت ابنيهما الصغيريْن يُمدان منقاريْهما ينتظران الطعام من أبويهما، اللذيْن يبتعدان وراء حقل الذرة .. في ثنية مجاورة، ويتقافزان والحب والغناء واضحان في هديلهما!

متى يجيء الغد؟!

متى تُشرق شمسُك في أرضي يا عبد الولي ولا تغيب؟!!

متى نتقافز مثل فرخي حمام؟!!

الرياض 2005/5/31م

أزمة مُخرج

حاول «فاروق منير» أن يخرجني من حالة الصمت التي أعيشها منذ عامين، هو مدير إدارة النصوص بالمسرح القومي. كنا زملاء في المرحلة الثانوية، وذبحنا سكين الهزيمة، فبدأ بكتابة الأشعار المتمردة، الرافضة للهزيمة، وأذكر أن إحدى الصحف رفضت نشر قصيدة مبكرة له كتبها عام 1968م، وهو في الثامنة عشرة، ومازلتُ أذكر وجهه المملوء فرحا وهو يقول لي مطلع قصيدته التي رفضتْها الرقابة:

كيف تكون الكلمة سيفاً

يهوي بالأعماق

كيف تكون الكلمة سهماً

وأنا أوقفُه قائلاً:

أريد أن أصير مخرجاً وأقدم لك مسرحية من إخراجي!

...

وهاهو الزمن قد مرَّ ..

صرتُ مخرجاً شهيراً أقدِّم متطلبات السوق في المسرح التجاري، ومسرح الدولة .. أنا الذي أنفقت عليَّ الدولة أموالاً طائلة لأتعلم حرفة الإخراج في موسكو على يديْ أشهر المخرجين.

صرتُ — أنا سامي الإمام — مخرجاً محترفا، أقدم مسرحياتي بلغة مسرحية عالية الإبهار.

قال لي «فاروق منير» إنه يريد أن يراني، بعد أن صار شاعراً مشهوراً، وقدّم له المسرح القومي ثلاث مسرحيات شعرية، وصار له عمود يومي في واحدة من أكبر الصحف انتشاراً.

هاتفني أمس وسألني لماذا أنت متوقف عن الإخراج، فأخبرته أنني أُعاني من أزمة ..

— نفسية؟

— .. لا

— .. أزمة موقف؟

— .. ربما! ..

إنني أراجع قناعاتي السياسية والمبدئية وما أقدمه من مسرحيات تُدغدغ العواطف ..

قال إنه سيقدم لي نصا لأخرجه في مسرح الدولة.

زارني في بيتي في الثالثة بعد الظهر.

أعطاني نصه، وقال إنه عن صراع الطبقات، من خلال تقديم المتصوفة «رابعة العدوية»؟

فقلتُ مستغرباً:

ـــ هل يُمكن أن تُمثّل رابعة العدوية صراع الطبقات؟ .. وكيف يُمكن أن نجد هذا في النص؟

قال ضاحكاً:

ـــ إنها تنتقد القطط السمان، والوجهاء الذين يدّعون التديّن، ويمسكون السبح في أيديهم، لتزداد مكتسباتهم، وتروج تجارتهم، وتتضاعف استثماراتهم.

قلتُ حائراً:

ـــ إذن كيف سأقوم بإخراج مسرحية تحملُ مثل هذه الكلمات على مسرح الدولة؟

قال:

ـــ نحن الذين نختار نصوص مسرح الدولة، ثم لا تنس أن مسرح الدولة ـــ في ظل هامش الحرية المُتاح ولطبيعة المسرح ورمزيته ـــ أكثر جرأة من المسرح التجاري، الآن.

قلت:

ـــ الموضوع ـــ موضوع تقديم شخصية متصوفة ـــ ليس من الموضوعات المثيرة، ليتك ناقشت في نصك قضية الحرية، أو انفراد

أمريكا بحكم العالم منذ زوال الاتحاد السوفيتي، أو العولمة، أو صراع الحضارات .. أو غيرها من الموضوعات من خلال مسرحيات تشتبك مع الواقع لا من خلال أقنعة!

ــ هل تنسى أن صلاح عبد الصبور قدم صورة للصراع بين السلطة والمثقفين من خلال شخصية متصوفة، في منتصف الستينيات من القرن الماضي هي شخصية «الحلاج»؟!

قلتُ ضاحكاً:

ــ ألا تعرف؟ .. الزمانُ اختلف!

قال في بلاهة:

ــ أجل! .. ماذا تقول؟

قلبتُ في الأوراق التي بين يديَّ، وتوقفتُ كمن لسعه عقرب:

ــ قل لي يا فاروق .. ماذا تعني بقولك: صوفية .. نورانية؟

قال ضاحكاً:

ــ إنك متوقف منذ عامين عن الإخراج (وحرص على أن يُداعبني) يبدو أنك أصبحتَ لا تقرأُ أيها المخرج القدير!، وأصبحت لا تفهم شيئاً في غير الفن الذي تعرفه .. المسرح .. هذه من مصطلحات الصوفية، وأنا قلت لك أمس أن نصي عن صراع الطبقات وفيه صراع بين درويش فقير يحبُّ رابعة وثري غبي، لا ينحازُ للفقراء، بل يستعديهم بمسلكه الاستفزازي!!.

قلتُ:

ــ أنا أرفضُ التصوفُ كما رفضتُ الماركسية!.

قال لي:

ــ أنت مخرج، تقدم نصا.. ما علاقة قناعاتك وفكرك بما تُخرجُه؟

قلتُ وقد ضقتُ به ذرعاً:

ــ أنا لست «بوتيكاً»، أو صاحب معرض للأفكار على خشبة المسرح.

هزَّ رأسه مستفسراً، وعيناه تستوضحان ما أقول، فقلتُ بصوتٍ هادئ أجتهد أن تكون نبرتُهُ واضحة:

ــ لستُ يا صاحبي محلٍّ بقالة.. إنما أنا مخرج له فكره.

صمتنا، وأعدت تقليب الأوراق:

ــ أنت تقول في بداية المشهد الخامس، على لسان الثري:

نحن وضعنا للعامة والغوغاء الترياق

في قالب دين يعتنقونه

في بضعة أبطالٍ مهووسين

يعتقدون بمنزلةٍ سامية لهمو

.. فهلْ كان الثري أيام رابعة من الشيوعيين؟

لم يُحب، فأضفتُ في نبرات حادة:

ـــ لا يُمكن أن يُقدِّم سامي الإمام هذا القول في مسرحية تحملُ اسمه!

ـــ هذا ليس كلامك، إنه كلام البطل .. لماذا تتكلم كلاماً غريباً يظن من يسمعه أن من يقوله لا يمكن أن يكون سامي الإمام المتخرج من أهم أكاديميات الاتحاد السوفيتي السابق؟

وأضاف ضاحكاً:

ـــ هل تخاف سطوة الأصوليين من أصحاب السلاسل والجنازير؟

قلتُ في حسم:

ـــ فلتعذرني يا فاروق. إنني لا أستطيع أن أخرج مثل هذا النص، فمازالت فيّ بقيّة من تلك الأرضِ الطينيةِ، من القرية التي مازال أبي يخطو فوقَ ثراها، ويصومُ رمضان والستة البيض.. ويُصلي في أعماق الليل، ويصلي الفجر جماعةً، ويحج، ويعتمر.

قام وهو يصرخ ويقذفُ كلماته كالرصاص الطائش في كل جانب:

ـــ هلْ يجرفُك سيلُ الجبن الذي يعتري حياتنا؟ .. هل تخافُ سطوة الأصوليين؟ .. ما هذا الذي أسمع؟ .. هل المخرجُ التقدميُّ الكبير هو الذي يقول مثل هذا الكلام؟

.. ألقى كل ما بنفسه من شوائب وأحجار وصَمَتَ، فشددتُه وأجلستُه، وأضفتُ:

مازال أبي .. والد سامي الإمام يؤمنُ بالله .. ومازالت أمي مؤمنة بالله ورسوله! اعذرني يا فاروق، فقد زلّت بالقدم النعلُ ذات مرة! فلماذا ترفُضُ أنت أن أخرج من الحفرة؟

قال وهو يرسم ابتسامة صفراء على شفتيه:

ـــ تهمني هذه المسرحية، وكنتُ أتمنّى أن تخرجها.

قلتُ ضاحكاً:

ـــ إنك تهمك الكتابة والشهرة فقط. وإني تصطرعُ الأفكارُ برأسي كالطوفان!

قال:

ـــ ماذا تقول؟!

حدّقتُ في عينيه قائلاً:

ـــ .. لا أستطيع أن أخرج هذا النص، حتى لو جلستُ عاميْن آخرين بدون عمل!

الرياض 2004/12/1م



رباب

(1)

قطعةُ السكرِ التي تذوبُ سريعاً ـــ ولا تترك بعدها إلا الحرقة والمرارة ـــ تجربةٌ أولى تُشعلُ الجمرَ في ذاكرةِ المؤرَّقِ بغيابٍ وعذابات:

أنا العشرينيُّ وربابُ أبناءُ قريةٍ نائيةٍ واحدة.

يدثِّرُنا الفقرُ بعباءتهِ المثقوبة، ويُغطينا الحلمُ بخيمتهِ المزركشة الفضفاضة.

هانحن في بداية العام الثالث من دراستنا الجامعية في كلية الهندسة.

نلتقي بين حين وآخر..

نقطعُ جسْر الفقْر بتشابكاتِ الأصابعِ.

ونحلمُ ببناء مساكن آدمية بعد أن تختفي عشوائيات «عُلب الصفيح» التي خرجنا منها!

حاولْتُ أن أحذرَ نفسي من أطرافِها المسكونةِ بالحبِّ والعذابِ والتمرُّدِ الجميل، أوْ أتجنبها؛ لكنها أقنعتْني أن الليْلَ للحلم،

ولأطيافِ البحْرِ وعرائسِهِ المسكونة بالترقبِ لطفولةٍ ثانية، وبدايةٍ جديدة، نحن — وأبناء جيلنا — قادرون على صنعها.

أتذكَّرُ الدقائقَ الفارة، وهي تلفظ الأنفاسَ.

وحدي ورباب — هل قلتُ عبلةَ؟ — في كتب التاريخِ، والشعر، والعشق!

لم تمنعنا الدراسةُ العلمية من أن نكون فارسيْن مُبحريْن في قراءة الشعر والفلسفة والحلم بالغد الجميل.

صرختْ ذات مرة، وكنّا واقفيْن في محطة مصر ننتظر القطار الذي سيحملنا إلى الزقازيق في نهاية أسبوع:

— رباب .. لا تناسب مساكن علب الصفيح!

ضحكتُ:

— اقترحي اسماً آخر.

قالت وعيناها تبرقان بوميض غريب:

— عبلة!

ضحكتُ من كلّ قلبي، وأنا أردد مستغرباً:

— عبلة؟!!

— أجل!

قلتُ مبتسماً:

— امسحي إذن عبد الستار.

وهي تجاريني:

ــ بم أناديك؟

ــ عنترة!

...

نخترحُ الحلمَ، ونصنعُ سفائنه!

في كتبِ هذا الليلِ أستنطقُ تذكارات طفولتي، والسكرُ في الفمِ النّائمِ، وأمي تحكي لي ما فعله السلطان فيمن اقتحم خلوة حريمه!

قلتُ وأنا أعاني من زحامِ الحافلة:

ــ مسي جبهتي بيسارك، التي بجانبي.

ــ .. أنت محموم!

(2)

أفقتُ من نوْمٍ طويلٍ في عيادةِ طبيبٍ جارٍ لنا، لأكتشف موتَ رباب، بعد أن ضربتْنا سيارةٌ مجنونة، ونحنُ نسيرُ مُتشابكي الأيدي في ظهيرةِ يومٍ صائفٍ مجنون.

قالت أمي في ثبات أحسدها عليه:

ــ رباب ماتتْ .. لمْ تتحمّل الصدمة.

صرختُ:

ــ ربابُ لم تمتْ!

هلْ كانتْ أمك تُحبها أم تكرهها؟

سؤال لا يؤرقك!

لكن الذي سيؤرقك طويلاً .. هو غياب رباب!

(3)

في حكاياتي المُقبلة، سأتكئ على التاريخ، لأثبتَ أن الفقير يُمكنه أن يُقابل السلطان، ويقول له ما لا يُحب سماعه؟

فعنترةُ يحتوي عبلة في أضلعه!

وعبدُ الستار ماتَ يوم أن ماتتْ رباب!

...

رأيتُ فيما يرى النائم أنهم قادوني إلى سراي النيابة: قلتُ لهم إن هذا النص .. (الذي أكتبه عن تجليات فمِ المُغنِّية رباب وعجائب شدوه) أكثرُ منْ معجزة، لأنه يجعل القرية النائيةَ المُغَيَّبةَ تولد من جديد، فوقَ الكراسي العالية، التي لا يصلُ إليها أحد! وأن الأولاد الحفاةُ العراةُ يُمكنهم أن يكونوا اللاعب الأول — الذي يملك كل أوراق اللعبة! — في منطقة المساجلة!

— ماذا تعرف عن رباب؟

— شاعرة من قريتي!

— ماذا تحفظ من أشعارها؟

— أحفظها، وأعرف خرائطها، لكني لا أحفظ أشعارها.

ـــ أغانيها مسجلة عندنا، فلماذا تنفي معرفتك بأغانيها؟

ـــ لماذا تسألونني إذن؟

ـــ إنها تُهاجم الجميع في أغانٍ ثوريةٍ بذيئة.

ـــ إنها تُغني للحياة وللمستقبل .. ولم أسمعها تُهاجمْ أحداً.

ـــ من الذي قتلها؟

ـــ لم يقتلها أحد .. لأن الجميع يحبها .. حتى الأشجار والعصافير.

(4)

سأخبركم ـــ بلا فخرٍ!! ـــ أنني أحكم الطوق حول رقاب الذين يريدون غياب رباب!

ولن أجعل الحمى تدخل بيتي، أو الوهم يخترقُ جدرانَ حبي للجميلة، ولنْ يحتويَها الغيابُ!

رغم الثقل الذي أشعر به في جسدي وفي أطرافي!

...

وإذا كان الفجر مظلماً في الدروبِ

فبإمكان غنائها أن يضيء طرقاتكم!

ولا مانع ـــ في فعلِ الغناءِ الجميلِ ـــ من أن تجعل الفيلم الصامتَ فصيحاً، مُفجِّراً طاقاتِ شعوركمْ، محققاً أمانيكم ومكبوتَ ضمائركم!

ألا يكفيكم أن تروْا بسمة رباب؟!!

ألا يكفيكم أن تسمعوا غناءَ رباب؟!!

(5)

فتحتُ الكراسةَ التي أكتبُ فيها خواطري فصرخت أمي:

ـــ هل مازلت تقرأ شعر رباب؟! ..

أجبتُ ضاحكاً:

ـــ ربابُ لا تكتبُ شعراً .. هذا شعري.

وقرأت:

ربـــاب

يا من تقفين في آخر الطريق، وتُنادين

ـــ لست وحدك هناك أيتها الحبيبة القديمةُ!

...

أنا أوقن أن بجانبي ألف نخلة

ترتفع فوق وجع السنين الطويلة!

وتناجيني من خلال حزنها

لغيابك

...

الشطآن المراوغة تتراجع تحت قدميَّ

وألف وردة تشتعلُ نارها في شراييني

فالرباب ما مات لحنها!

...

(قلّبتُ صفحات الكراسة، وفزعت أمي:

ـــ كأنه لا يكتب إلا لها!.

(6)

تلك الحياةُ الصامتةُ.

تلك البهجةُ المكبوتةُ في عيونكم.

لا تنبئُ عن حبٍّ رباب!

أخبرتني أختي الصغيرةُ (سُها) أنها رأتها في شاشة الأخبار ـــ قبلَ عرضِ الفيلم، وكانتْ واقفةً مع فارسٍ، لا يُشبهُ أحداً من الناس!

كأنَّه رجلٌ سماوي.

وأن النخاس أخذ يقلبها، ويُعري أطرافاً من ثوبها!

و...

لا تُكملي فريتَكَ يا سُها، فلن أُصدِّقكَ!

فربابُ ..

لا تُباعُ ـــ أو تُعرضُ ـــ في سوقٍ للرقيق،

فلماذا .. أيُّها المتقولون .. تتربصون بسيدةِ نصوصي التي تقولون عنها إنها ماتتْ غيلةً؟

وأنا ..؟

لا أبصرُ القضبان

حول خطواتي..

أو في رحابةِ أفقي،

أو عائقةً عنْ قدومِ فجري بعودة «رباب»؟!!

ديرب نجم 2003/8/26م

حزن لا يموت!

(1)

لأيام حنينك .. التي فارقتْها الشمسُ اللاهبةُ سأودعُ ساعات الدعة، وسأكتبُ أحرفي المجنونةَ على بابك .. وأسألُك: لِمَ لَمْ تسمعي صدى نداءاتي الأخيرة .. ودعائي أن يجعلك اللهُ تعالى من نصيبي؟

كم بدت النجومُ قصية حينما صممتِ على الرحيل ..

هل أقول: وتحطّمت آمالي؟

لا أجرؤ على قول ذلك، فأنا ــ للأسفِ ــ مازلتُ أعيشُ، وأُهاتف أمي وشقيقتي مرتين أسبوعيا، وأسألُ عن أحوالِ أقاربي وقريتي؟!

هاهي أشرعتُك تبحرُ متعجلةً نحو البعيدِ .. المجهول، وبقسوةٍ لم أتخيلها ..

لماذا رحلت يا نبوية وتركت أشلاء فارس تبحث عنك كيْ تعيدي إليها الحياة كما فعلت جدتك «إيزيس» ذات يوم!

لماذا رحلتِ و لم تسمعي قصائدي المرهقة بالحنين، الحالمة — كقلبي — دواماً بكلمة منك .. تعيدُ الحياةَ لهذه الجثةِ الساكنة؟!!

أطفأتِ — بيديْكِ — شمعتي الساهرة!

(2)

أخذتُ أرضي وصفصافتي وعصافيري .. تحت جلدي، وقبعْتُ مقنَّعاً بالفضاء الأبيض الفاتر في هذه المدينة الجميلة التي تستلقي في حضن البحر هاربةً من أضلاع الصحراء!

أجلسُ خلف الكرسي الوثير .. وأمامي حاسوب أدون عليه أرقام الصادر والوارد، وأُحصِّل المبالغ المستحقة لهذه المؤسسة التجارية ذات المسؤولية المحدودة التي أعملُ بها، والتي يمتلكها شيخٌ نقي ضرير، ويُشرفُ عليها أخوه الأستاذُ الجامعي، الذي يثق بي كثيرا.. وأرجو أن تكون ثقته في محلها!

لم تعد لديَّ أجنحة كي أحلق بها، و لم أعد أستظل بصفصافة أو أشع في بهاء، ولم أعد أكتب شعراً، منذ تركت «نبوية»، وغادرتني أحصنة شعري التي لا تصهل!

أتركتُها أنا .. أمْ هي التي تركتْني؟

استقرَّ والدها التاجر الكبير في الإسكندرية التي ضاعت فيها، فلم أستطع أن أراها أو أجلس إليها!

لعلها رحبت بهذا الانتقال؛ فلم تكن أختي فريال تحبها.. وظنت نبوية أنها ستقف في طريق زواجي منها!

أصبحتُ ـــ بعد رحيلها ـــ أوقنُ أن الجفافَ يسودُ الأرض، وأن السماء لم تعد تمطر.. والخراب ينشر أجنحته السوداء في كل مكان من أرض الله!

لم أعد أشعر بنبض ما أكتبُه من خواطر، فما أكتبه هو هوامش ـــ لا أكثر ولا أقل ـــ على كتاب رحيل نبوية .. أو كتاب الغياب!

...

لكني ـــ مع ذلك ـــ ظللتُ أكتبُ .. حتى لا أنسى صبوات النرجس، وموسيقا حياة الروح!

(3)

قلتِ لي ذات مساءٍ، والشمسُ الغاربةُ تدفع شعاعاً قانياً من خلفِ الغيوم ليسكبَ في قلبي الفزعَ على مشهدِ مأتمِ الجمال الوحشيِّ:

ـــ في مقلتيَّ ضياء طفوليٌّ قديمٌ ينبئُ عن حرماني!

وأنتِ وردةٌ حمراءُ أعلقها في «شم النسيم» على عروةِ قلبي، المُباغَتِ دائماً بحرابِ الفقْدِ والثكل!!

لماذا اختفتْ ملامحُ وجهك الطفولي اللامع .. خلف شرفةِ الغيابِ .. فما لي أبصرهاَ — على الرغم من ذلك — حقل أنجم خرساءَ في سمائي المعتمة؟

أتذكرين ريشتي التي رسمتك ذات مساءٍ صافٍ على قبةِ السماء، وحثت خطاها القصيرة، نحو مروحك السماوية .. يا ذات العينين العسليتيْنِ المثقلتين بالوجوم؟!

وأنتِ تقولين: رسمك أحسنُ من شعرك.

— كان جبران رساماً أيضاً.

تضحكين:

— أيهما أسبق عندك .. الرسم أم الكتابة؟

— رسم الإنسانُ الأول على جدر الكهوف قبل أن يخط قصيدة أو حكمةً!

رحلتِ ..

منذ كمْ تركتني؟ .. عشرة أعوام؟

قابلتُك وأنت في السنة النهائية من دراستك الجامعية في ملتقى صيفي للطلاب، وكنتُ قد تخرّجتُ من عاميْن!

ذهبتُ لزيارة صديق في معسكر أبي بكر الصديق، فوجدتك هناك!

وأنا أُطالعُ الآنَ خطابك الوحيد .. يحدثني عن نزوة حنانك الساحر، وعن عينيك الحالمتين. ويحدثني بصيف بديعٍ قريبٍ نزق .. نقضيه في غفوة من زماننا المخاتل .. وتغنين فيه أغنيات الحب لطفلكِ (هلْ مازلْتُ طفلاً؟) الذي لا يكبر أبداً.

وأتساءل:

أهجرتِني إذنْ، وأنا في الرابعة والعشرين.. فمن سيؤنس وحدتي — في أيام العمر القادم المملة — بعد فراقك المباغت؟!..
ومتى سيدخل طيفُكِ حجرتي أعلا السطوح؟ .. طيفك الذي يرجُّ أضلعي، ويطوي أيام الغربة بحنينٍ دافق .. إلى قريتنا (التي لم تعد قريتك) البعيدة .. البعيدةِ .. البعيدة؟

ومن الذي سيُفاجئ طريقي .. بخطوات غير مُراقَبة .. ويمدُّ يده البيضاء لألثمها وأنا مُغيَّبٌ، بين حلمي .. وواقعي؟!

(4)

لماذا ذهبتُ إلى البحرِ — بحر الدمام — في اليومِ الثالثِ من أيام عيد الفطر؟

أكان لا بد أن أذهب إلى البحر .. وأنا الذي لا أغادر الشركة إلا للنوم، وقبل النوم أقرأ رواية أو أشاهد بعض برامج الفضائيات؟ .. أو أكتب سطوراً مما أظنه شعراً؟

رأيتُ «نبوية» على البحر، تضحك بقلب ممتلئ بالبهجة (أم هكذا صوّرتْ لي هواجسي؟) وأولادها، ينطقون لهجة الخليج في تمكن، ويلعبون ويجرون في حبور وضوضاء.

كانت تجلس بجواري على الشاطئ، في هذه الحديقة المترامية، وكنت أنا والمهندس النوبي سعيد ـــ جاري في السكن ـــ نلعب الدومينو، ويحاول كل منا أن يكسب الدور، وضحكاتنا العالية ترج المكان!

تشاغلتُ برهةً بتأمُّل خطواتها، وهي تتحرك لتجلس على السور الواطئ الذي يفصل الحديقة عن البحر!

...

وسعيد يضحك:

ـــ لن أتركك تهزمني، لو اضطررتُ أن ألعب حتى الفجر .. فسألعب.

وأضاف:

ـــ غداً الخميس .. إجازة في البلدية.

أضفتُ وأنا ابتسمُ، مشجعاً له:

ـــ عليَّ أن أفتح مكتب المؤسسة في السابعة والنصف.

(5)

اتركي لي في القلبِ جذوةً صغيرةً .. صغيرةً .. من نار العشق .. تضيءُ طريقي الدّامسَ، وتعاليْ معي .. نجلس على العشبِ في قصْرٍ مسحور، نقرأُ أشعار طاغورَ .. وتغنين لي أغنية فايزة أحمد الأخيرة!.. ونلقي الصحف الكاذبةَ بعيداً، بكلِّ ما تقدرُ أيدينا .. حتى لا تلوث أصابعنا (التي تكادُ تنْدى) بحبرها الأسودِ الخبيثِ.

تضحكين:

ـــ الصحفُ لم تعد تلوثُ الأيدي، فقد مات العرَّابُ الكاذبُ ربُّ الجنود .. بعدَ رحلتِهِ الأخيرةِ / غيْرِ المقدَّسةَ!!، وتركنا للفجيعةِ، وللحقيقة الوحيدةِ ..

ـــ ماذا تقولين؟

لا تردين على سؤالي، وتُكملين:

ـــ تركنا كالفئران، أو قل أسرى في أيدي الغربان!!!

(6)

هاهي أخيراً «نبوية»، يا الله!

لم أجدها للمرة الثانية على شاطئ الإسكندرية، ووجدتُها على شاطئ الدمّام!

تزوجتْ من خليجي، وتركتني!

كسبتُ الدورَ من سعيد، وتأكدت خسارتي في «نبوية»!! ..

زوجها فتى .. في نحو الأربعين، خفيض الصوت، له لحية خفيفة، ويداعب أطفاله في حنو بالغ، ويتكلم كثيراً في هاتفه الجوال .. يبدو من منظره وكلامه أن صاحب مؤسسة تجارية، كالمؤسسة التي أعملُ بها.

لماذا جئتُ الليلةَ إلى البحر؟

(7)

لا أذكرُ خطواتي الأولى معها!

لا أدري كيف تعرّفتُ عليها.. أو كيف اكتشفتُ أنها جارتي، وأنا في الرابعة عشرة؟!

كنتُ صبياً، لي الأمسياتُ التي أنطلقُ فيها كالفراشة أغني، تُدغدغُ الأغنياتُ مشاعري فأطير بعيداً عن قيدي الزمان والمكان، وكانت جميلةً جميلةً .. وكان فمُها عصافيرَ تغردُ، وكانت وردةً حمراءَ في العيون، مُبهجة!

تمنيتُ لو تصمت الأغنية الكسول التي تتردد بجانب شجرة الصفصاف، في مذياعٍ خشبي كبير — حينما مرّت — وأنا مستلق على تل صغير بالفضاء، أُذاكرُ ما قاله أبو ماضي، عن الحجر الصغير، والأستاذ يُهددنا بأننا سنرسب في امتحانات الثانوية العامة — التي لا ترحم — إذا لم نحفظ النصوصَ جيداً ..، كنتُ في الصفِّ

الثالثِ الثانوي، وكانتْ تصغُرني بعامين. وأختي فريال التي لم تتعلّم تراها قطةً لها أنياب!!

قطة لها أنياب؟!

.. ماذا تقولين يا فريال؟ .. أنت لا تعرفين القطط، ولا تحبين الفراشات أو الورود!

كان الضوءُ البعيدُ للعصفورة الملونة .. يتجلى في هالةٍ شبه رماديةٍ صغيرةٍ كافيةٍ أن تحيطَ بالرأس والعنق، وتُحدد ملامح الصدر الصغير المكتنز .. فتبدو كأميرة منحدرةٍ من سلالةِ ملوكٍ من قرونٍ سالفة أراهم في الصور الملونة في الروايات المترجمة!

لماذا ترك أبوها — تاجر الألبان — القرية، وهاجر لبعض الوقت إلى المنصورة فدمياط ثم إلى الإسكندرية؟

أكان متعثرا في تجارته ولا يريد من البلاد أن تفرح في فشله؟

.. أمْ كان ناجحاً وينتقل من نجاح إلى نجاح؟

أصغرت القرية عن أن تحتوي آماله ونشاطه؟ وهو الرجل الذي له زوجة ثرية .. وبنت ولد؟!

على شاطئ الترعة المتخم بالزرقةِ .. بين النوم واليقظة، وحيثُ لا يُطالع أبي دفاتري .. كتبتُ قصيدتي الأولى، وكان صوتُ العصفورةِ الوحيدة هو القوةُ الحقيقية التي يُمكنها أن تجعلني أحلم وأغني .. خلف الجدران الطينية هناك .. حيثُ تزهرُ أشجارُ القطن،

وتجري مياه الينابيع، وتجلسُ أمام صنبور بجانب باب الدار الكبيرة، وترشني بقطر الندى كلما مررتُ!

كنا يوم أربعاء في قرية منسية من قرى الشرقية!

وها نحن في يوم أربعاء بعد سبع عشرة سنة في الدمّام .. وفي ثالث أيام عيد الفطر .. في أرض بعيدة!

ما أسرع ما يمر الزمان!

...

(8)

لماذا تحوطك الغمامات وأنتِ — في جلستك البهيجة — محاصرةٌ بأحاديثِ العابراتِ عن حزنكِ، وعن جمالِك البهيج الذي يُدير الرؤوس!

لتنتش أرضٌ أنت تجلسين عليها، ولينتش كرسيٌّ أنيق، ومقابضُ ذهبية ولأنتش أنا المأخوذُ ببهائك ولأسرف في الفخر، لأنني كان لديَّ فسحةٌ من الوقْتِ لأراكِ وأنتِ جالسةٌ تطالعين مجلةً ملوّنةً لا تتحدّثُ بالطبعِ، عن إسرائيلَ، وحربِ الاستنزافِ، والقائد الكهلِ، الذي يريد أن يبسط سلطته المتآكلة على ثلة أصحابه الكهول بفعلِ الوقتِ، والهزيمة!

قبل آخر لقاء في معسكر أبي بكر الصديق .. كان يُرافقني ابنُ خالتي العائدَ منهزماً من حرب الساعاتِ الست، وكانت ضاربةً

الرملِ تُغريه بزواج ابنتها القبيحةِ (الغولة)، وكانتْ طيورٌ متوحشة تقرعُ الكؤوسَ في صباحٍ معتمٍ!، تركني أمام المعسكر وأنا أثرثرُ:

تعاليْ أيتُها الطواويسُ المهزومةُ، تعالَ يا إوزٌ، يا بطٌّ، لنحتف جميعاً بالهزيمةِ .. برحالِ الهزيمةِ، ولندحرج مآتمنا في رمالِ الشرق، ونأخذ أقمارَ البراري في أحضاننا.. ولنكتب قصائد الهجاء في كلِّ نجمٍ محاربٍ، لم يصُن مفارق سيناء، أو «شرم الشيخ» و«دير سانت كاترين».. حتى لو استمطر سحائب النصر الغائب بمهمةِ العرَّابِ الكاذبِ..، وحاول أن يُطلع في سمائنا أقمارَه العجيبةَ السوداءْ!!

أيها الشعرُ .. يا جناحَ الطائر البحريِّ المسافر إلى البعيد ..

خذ شوقي إلى سريرها الغافي في مروج النور ..

ورش أطيافاً من نورٍ، وصلاةٍ

على هدبها الغافي ..

وتعال .. صف لي ضجعتها الأخيرة!

...

أيتُها الفرسةُ الصاهلةُ! كمْ يعذبني صمتك

وأنتِ كم صهلتِ .. وصهلْتِ .. بين مروج ربيعي الأجرد، قبل أن يُقدمَ الغربانُ بنجمتهم السداسية وسوالفهم الطويلةِ السوداءِ القبيحة!

تتكدّرين؟

سأذكرك دائماً

...

لأجلسْ على الصخورْ

ولأتِهْ بحبك .. الذي كان ملاذي

في الشارع المهجور

بين أقراني!!

وعلى أطيافِ سهدي

وسأحاولُ ـــ أنا مالكُ بن الريب ـــ أن أكتب المرثية الأخيرة

لقلبك المفطور!!

(9)

«نبوية» تخرجت، وتزوجت، وأنجبت ..

وأنا وحيد، بلا أب!!

فقد رحل أبي قبل أن أتزوج!!

.. ولي أم عطوف، تحنو عليَّ، وتدعو لي، وتقول لي دائماً إن «نبوية» ليست آخر الدنيا!

.. ولي أخت عانس (هل قلتُ من قبل إن اسمها «فريال»؟) في الأربعين لم تتزوج، وتهوى اصطياد اليمام والعصافير، وتحب قتل الفراشات واغتيال الورود!

يا لدورات الزمن!!

لم أكن أدري عن «أربعاء الرماد» هذا ـــ بالدمام ـــ الذي فتق جراحي!.

وكأن المُغني الكهل الضرير ـــ الجالسَ في طرفِ الحديقةِ ـــ يجلد إحساس الشاعر القديم بقوله:

«إن الزمان هو الزمان دائماً
وإن المكان هو المكان الدائم والوحيد
وإن ما هو فعلي هو فعلي لمرة واحدة فقط
ولمكان واحد فقط» !!

ديرب نجم 2005/8/24م

زيـــــــارة

القرية تمحني وكل من فيها لا يريد رؤيتي.

فكيف أذهب إلى القرية؟

كيف أذهب إلى القرية وأبي وأمي قد ماتا معاً في حادث مروري منذ سنوات طوال (لم أزر القرية من يومها)، وشقيقي الوحيد «بهاء» ترك القرية ليعيش في إيطاليا مع المرأة الإيطالية التي أحبها وتزوجها، وترك بلاده من أجلها؟

فلأذهب إلى الطبيب النفسي «صفوت عيسى» الذي عرفته زميلاً لي في معهد حلوان الاشتراكي في «سنوات النضال»، قبل هزيمة يونيو 1967م، وأتحدّث معه بعض الوقت.

كان أيامها ما يزال نائباً في مستشفى القصر العيني.

وهو الآن أستاذ كبير في طب القصر العيني؛ تستضيفه الفضائيّات، والمجلات الطبية، ويُدلي برأيه الطبي في الكثير من الصحف التي تطلع عليها، وأحيانا ما يتحدّث في بعض قضايا المجتمع؛ كالإصلاح، والفقر، وقضايا التعليم.

مازالت أتمنّى أن يسمعني!

...

ابتسم ابتسامة مشجعة، قبل أن أتكلم!

الاسم: سُها، غيّرته من سناء علي خليل إلى سها، أليس ذلك أفضل يا دكتور؟!.

العمر: ألف عام في التيه، وممارسة الخطيئة، بلا لذة. وكأني أعذب نفسي!

الهواية: قراءة الشعر، والاطلاع على بعض ما تنشره الصحف النسائية التي تهتم بقضايا المرأة من قضايا الجريمة، والاستماع إلى الفضائيات ومشاهدة ما تقدمه من أفلام قديمة .. أبيض وأسود .. لا أحب الأحاديث الطويلة .. كم أتمنى ألا يزيد البرنامج — أي برنامج عن نصف ساعة.

الملل؟ .. هو ما يقتلني، بل هو الذي دفعني لأجيء وأتحدث معك!

هل تذكر أنك عرضت عليَّ ذات يومٍ الزواج، فقلت لك:
إني تزوّجتُ القضية! قضايا مصر وأفريقيا ودول العالم الثالث؟

أية لوثة أصابتْ عقلي يا صفوتْ؟

هل ساءتك أحوالي؟

هل تريد أن تسألني عن صحتي؟

القوام: القوام؟!

.. هل أبقت فيَّ الأيام قواماً؟

هاأنت تراني طويلة، وبيضاء، وملفوفة، وكأني ابنة باشا، مع أني ابنة لفلاح متواضع كان يملك أربعةً وعشرين قيراطاً (أي فداناً لا غير) في إحدى القرى المنسية من شمال محافظة الشرقية، ها هو تركها ومات من ثلاثة أعوام في حادث مروري، وبموته ودَّعتُ القرية، ولم أعد أطيق السير في الطريق الموصلة لها!

بيتنا؟ .. لم يعد لي بيت في القرية، فقد تركه أخي هو والأرض لأبناء عمي، وتزوّج من امرأة عرفها في فندق كان يعمل فيه في شرم الشيخ. سحرته، فترك وظيفته، وسحبته وراءها إلى إيطاليا.

لا .. لم آخذ ميراثي في الأرض .. الأرض لله.

كأنك تقول أين صدر سناء الذي اشتهرت بجماله؟

صدري كان مكتنزاً .. وهاهو قد بدأ يترهّل تحت وقع سنابك خيل الزمن، وكأنها خيول المغول التي لا ترحم!

...

سألني صفوت الآخر «صفوت نعمان» ذات صباح أسود جنائزي (ورحلاتي تتوقّف في شقته مرتين أسبوعيا، حتى بعد أن مرّت «سنوات النضال» ــ بحلوها ومرها ــ وصار رئيساً لمجلس إدارة مصنع رأسمالي (لا أعرف أسماء أصحابه، ولا جنسياتهم، فهو من المصانع عابرة القارات!!)

تسألني وأنت خائف من ردي:

ــ لماذا لم تتزوّجي يا سُها؟

وضعتُ ابتسامة شبه ميتة ألِفتُ رسمها على وجهي كلما قابلتُ صفوت الآخر:

ــ هل تنوي أن تتزوّجني يا باشا؟

.. وكأنما لدغته عقرب:

ــ وهل من الممكن أن أتزوّج في هذه السن؟!

... وكأن عينيه تقولان:

«وهل أتزوّج داعرة مثلك؟!!»

فهل ينسى هو ورفاقه أنهم هم الذين صنعوا مني هذه الدّاعرة؟! وهم الذين لوّثوا هذه القروية الغريرة .. التي كانت ذات يومٍ جميلة؟!!

ـــ لم تدع لي الأيام فرصة أن أتخذ قراراً مثل هذا!

...

سألني الطبيب النفسي «صفوت عيسى» ـــ دون أن ينطق ـــ كيف كانت الرحلة من القرية إلى المدينة .. إلى ذلك الحي الراقي من المدينة وكأنها رحلة ألف عام من المعاناة الدائمة والألم؟

نظر إليَّ كأنما يكتشف للمرة الألف مناطق اللذة الرخاميّة، التي يستعذبها الساقطون من أمثال صفوت نعمان بعد أن أطال من قبل التأمل في أجزاء نساء أخريات لا تُضاهيها حلاوةً وتمرداً ..

ـــ من أنتِ منهما: سناء علي خليل أم سُها؟

ـــ سُها!

وكأن الطبيب قد بوغت بإجابة لا يبحث عنها، ولا ينتظرها:

ـــ لا أسألك عن الاسم .. ولكنَّ ما أقصده ..

ـــ ماذا؟

... غيَّر اتجاه الكلام بعد أن أحس سفالة السؤال:

ـــ كيف تركك صفوت ـــ معذرةً ـــ ولم يتزوّجك؟

وهو يُنزل عينيه إلى أسفل:

ــ حينما رفضتِ عرضي للزواج .. عرفتُ من البعض أنك على علاقة به!

رفع عينيه، وأضاف ضاحكاً:

ــ كيف ترك كلّ هذا الجمال؟

إن عيني الطبيب تقولان: كيف يتركك وهو الذوّاقةُ الخبير بأجساد النساء؟!

لاحظتُ أن شعره يميل إلى البياض، قلتُ كأني تمزح:

ــ أظن أنني رأيتُك منذ عشرة أعوام، يا دكتور صفوت .. كان شعرك فاحماً.

قال ضاحكاً، وقد استهوته المزحة:

ــ لم أرك يا سناء ــ آسف يا سُها ــ .. منذ ثلاثين عاماً .. هل مازلتِ تذكرين اللقاءَ الأول؟ في معهد الشباب الاشتراكي بحلوان في أواخر الستينيّات، في تلك الفترة السوداء التي أعقبت هزيمة يونيو 1967م.

صححتُ له:

ــ بل رأيتُك قبل الهزيمة بفترة بسيطة ..

أغمض عينيه:

ــ كنتُ حديثَ التخرج من كلية الطب، فقد تخرجت في عام 1965م وكانت لي أحلام في السفر إلى أمريكا، أجهضتها

ظروف تلك الأيام. ووجدتني أقرب إلى البعثة للاتحاد السوفيتي من أمريكا. لماذا أذهب إلى أمريكا وهي التي تدعم إسرائيل على اغتصاب فلسطين، وهي التي ضربت بلدي؟ بل كانت هزيمتنا بسبب دعمها لإسرائيل. هكذا قالوا لي في إدارة البعثات وقتها.

ويقطع روايتَه:

ـــ هل تذكرين؟

ويزفر ضاحكاً:

ـــ اتجهت إلى الاشتراكية، ثم تبيّن فيما بعد أنها كذبة كبرى!

غامت الرؤى في عينيه، وصمت، وهو يزفر بحسرة:

ـــ سقطنا جميعا في الفخاخ التي كانت منصوبة لنا بلا رحمة!

.. نحن والاتحاد السوفيتي!

أدار رأسهُ وهو يضحك:

ـــ تستطيعين أن تقولي إنني الآن من التيار الإسلامي، وإن كنتُ لم أنضم إلى حزبٍ أو جماعة!

قال وهو يُغمض عينيه:

ـــ الإسلام هو الحل .. فيه الحل لكل مشاكل البشر وليس المسلمين فحسب.

وجدني صامتة، فأضاف في نبرات واضحة:

ـــ ما رأيك يا سُها؟

ـــ انتفضت:

ـــ أنا زميلتك سناء علي خليل!، لكن الناس يعرفونني باسم: سُها! .. اسم من ضرورات المرحلة يا دكتور .. وأنت ناديتني باسم سناء من قليل!

ابتسم:

ـــ لقد كبرنا .. يا سناء! أنا في الثامنة والخمسين الآن .. أنا من مواليد 1943م، وأظن أنك تصغرينني بعدة أعوام .. ثلاثة مثلاً؟

لم أُجب.

ضرب المكتب بيده وهو يخلي للبسمةِ مكاناً:

ـــ رحلة طويلة .. من النشأة في قلاع الإقطاع بأنشاص .. بمحافظة الشرقية حيث أرض الملك .. وأبي وأعمامي أجراء في أرضه .. إلى الحلم بإنجازات الثورة .. التي وعدنا بها جمال عبد الناصر .. وغناها عبد الحليم حافظ وصلاح جاهين في «بستان الاشتراكية»، ثم التفوق .. ومنظمة الشباب ومعهد حلوان الاشتراكي .. وذهابي إلى روسيا لاستكمال دراساتي، والتحول هناك عن طب المجتمع إلى الطب النفسي .. لمحاولة التخفيف عن أوجاع الناس الذين قتلتهم هزيمة 67.

أغمض عينيه، كأنه يريد أن ينسى:

ـــ رحلة صعبة!!.

زفر:

ـــ يا الله حسن الختام .. أحاول أن أنسى تلك الفترة من حياتي!

رأيته وهو ينظر إلى الجهة الأخرى .. ويُخرج منديلاً ورقيا، ويبصق في قرف!

......

لأغير الموضوع .. سألتُه:

ـــ كيف حال أسرتك .. أقصد زوجتك وأولادك؟

ابتسم:

ـــ أمضيتُ حياتي وحيداً .. أبي ترك لي ستة أولاد وبنتين. أكملتُ بعده رحلتي معهم .. تزوّجوا جميعاً، وعملوا في وظائف حكومية، وسافر بعضهم للعمل في الخارج: في ليبيا والعراق والسعودية .. وبقيت أنا، أقضي خمسة أيام في القاهرة مع أصدقائي من المرضى .. ويومين في أنشاص .. أزور أقاربي، وأشارك أهل القرية في الأفراح والعزاء ..

استمرّ في الحديث ..

.. وكان عليَّ أن أستمعَ له، لأنسى وحدتي والكثير من جراحي، وأجعل سها المأزومة تنسى تلك الأيامَ التي تُطاردها ..

وتنكأ جراحها، وأُساعدها على أن تقذف ذلك الماضي الحزين القاتل الذي يُطاردها في صحيفة الزبالة التي بجانبه!!

الرياض 2006/2/24م

وجه آخر للفجيعة!

قالت له زوجته:

ـــ أنت غني .. فلماذا لا تُعطي أولادك في حياتك؟.

انفعل، وخرج الرذاذ من فمه يغطي وجهها، كأنه بصقة:

ـــ أنت تفسدينهم ..

قالت وهي تُدير وجهها، وتمسح رذاذه بيسراها، وتضرب الهواء بيمناها:

ـــ أنت وحيد .. ليس لك إخوة .. قلت لك ألف مرة اجعلهم أخوة لك.

جناح كلماته ينكسر عن التحليق!

ماذا يقول هذا الرجل ..؟

أعدّ لها ما استطاع من قول بكل قوة .. شحن قلبه بالكراهية السوداء .. هذه المرأة دائماً تكسر كلامي وتقف في وجهي وتحول بيني وبين تربية أبنائي كما أريد!

أدار وجهه مكتئباً، فأضافت:

ـــ أنت تجعلهم يتمنون موتك.

...

أدركته نوبة ربو مفاجئة ذات مساء، فمات عن خمسة وخمسين عاماً.

لم تجد الزوجة ابناً من أبنائه يسير في جنازته .. وبعد أن دفنه الناس أقسم أبناؤه ألا يعرفوا مكان مقبرته!

الرياض 2005/10/14م

عرض موجز لموت زرقاء اليمامة

هل مازلت تذكر زميلتك حياة؟

اليوم يمر ثمانيةٌ وعشرون عاماً على رحيلها..

كان أبوها يلقننا مادة التاريخ في تجرد وإخلاص، وبصوته المبحوح يطلب منا ونحن وقوف في طابور الصباح في المدرسة الثانوية المشتركة أن نكون رجالاً، ولا ننظر إلى العناكب التي سدَّت علينا الأفق بعد هزيمة يونيو 67، وأن الانتصار قادمٌ .. قادمٌ!

يقول لنا ذلك في خطبته الأسبوعية التي يُلقيها صباح كل أحد، وقد اختار يوم الأحد لأنه يوم السوق الذي يُقام في مدينتنا الصغيرة، ويفد الفلاحون من قرى المركز للبيع والشراء لما يحتاجونه لمدة أسبوع .. اختار هذا اليوم ليُلقي خطبته في طابور الصباح من

الإذاعة المدرسية لعل أحداً يسمعها خارج أسوار المدرسة فيفيد منها؛ فتكون الفائدة مزدوجة من الخطبة: داخل المدرسة، وخارجها!

كان يقول: إن المدرسة مركزُ إشعاع في البيئة.

وكان يدرِّس التاريخ وكأنه يدرس تلاميذه قصة عشقه!

...

رأى اليهود وهم يستحمون في القناة، فلم يأبه!، وقال: سنراهم قريباً يندحرون!

ورأى الأريكة المريحة وهي تتهاوى تحت مقعدة السلطان الكهل، فلم يحفل، وقال: مصر ولادة!

ورأى من يسرقون في بداية عهد الانفتاح السعيد «وكان حياة قد رحلت، وبدأ يفقد نور عينه اليمنى»، فقال: عابرون .. لكن علينا أن نتصدّى لهم .. ونقف في وجه شرههم.

...

ماذا فعلت بك الحياة يا أبا «حياة»؟.

حينما ماتت ابنته «حياة» .. في 15 مايو 1971م، يوم «ثورة التصحيح» المباركة التي قادها السادات، ونحن في نهاية السنة الثالثة من دراستنا الجامعية (وقد كانت زميلتي في المدرسة الثانوية المشتركة التي كان أبوها يُلقننا التاريخ!، كما كانت زميلتي في قسم

التاريخ بجامعة القاهرة) ... هتف الأستاذ ونحن على رأس المقبرة نواريها التراب:

ـــ أين ذهبتِ وتركتنا يا حياة؟

.. ورأى الآفاق مترامية كجراحه التي لا تبرأ!

قتلتها سيارة طائشة في ميدان رمسيس وهي في طريق العودة إلى القرية، بعد أن انتهت امتحاناتنا، وكانت أمها قد ماتت قبلها بعامين ونصف أثر دخولها الجامعة.

كنتُ بجوارها ساعة الوفاة!

حاولنا إنقاذها، ولكنها ماتت قبل أن تصل إلى مستشفى «الجلاء» المُجاور لميدان رمسيس.

لم يعد أستاذنا يتكلم، بعد موت «حياة»، وقد كان متحدثاً جميلاً ومشرقاً.

كان يردد دائما، أمامي:

ـــ لا أدري لِمَ لَمْ تعطِ الحياةُ فرصتها لحياة؟! .. هل لأن القبح والدمامة صارت لهما الغلبة في الحياة؟ .. أم أن في اختفائها إشارة لاختفاء العقل والمنطق من حياتنا؟!

التحقنا أنا وهي بقسم التاريخ، لنكمل مسيرة والدها الذي انشغل بالتدريس ولم يؤلف إلا كتاباً واحداً عن «تاريخ العسكرية المصرية» من عهد مينا موحد القطرين إلى قيام ثورة 1952م.

...

كنتِ — يا حياةُ — قادرةً على الرؤية البصيرة .. مثل زرقاء اليمامة، لكنك لم تتنبهي في تلك الأيام لمقاطع الهزيمة التي يمتلئ بها كتاب راهننا!

هل كنتِ تخافين أن ترديك الكلماتُ الجاهلةُ الفاجرةُ في بركةٍ من الأسى الدائم ... فطال صمتُك وأنت المتحدثة .. واكتفيْتِ بصحف الحائط التي كنتِ تصدرينها في الجامعة؟ ..

لماذا توقفتِ بعد عدة أعداد .. وآثرتِ الصمت الدائم؟!

وكنتِ لا تتحدثين إلا في الجلسات الصغيرة التي تضمنا مع والدك، أو في قاعة الدرس.

كنتِ تبصرين النصر قادماً، وتبصرين بعده أثرياء الحرب (الذين أسميناهم بعد الانفتاح السعيد — بعد رحيلك — «القطط السمان»)، وكنت تُشيرين إلى اختفاء الطبقة الوسطى، بعد مجيء أثرياء الحرب الذين لا يملكون قيماً، أو إرادةً لنهضة البلد!

كنتِ الأولى علينْا في السنوات الثلاث، التي عشتِ فيها معنا في دراستنا الجامعية .. بعد النكسة القاتلة.

وكنتِ تُحاولين أن تظهري أمام زملائك وزميلاتك مرحةً في ذلك الزمان (رغم الحزن البادي في ملامح وجهك) .. وكنتِ بين

حين وآخر تلعبين كرة السلة مع فريق بنات الكلية، وتُدمنين قراءة المنفلوطي ومحمد عبد الحليم عبد الله.

..

زرتُ أباكِ أمس .. عشية الذكري الثامنة والعشرين لصعود روحك الحرة إلى بارئها .. فلاحظتُ بعضَ التجاعيد حول عينيكِ في الصورة المعلقة على الحائط.

ربما من آثار التراب، فلا يد تمرُّ على الصورة لتجليها.

ورأيت عيني أستاذنا حجرين لا يُشعان، وفمه صامتاً لا ينطق!

وعلى الحائط صورتكِ أنت فقط، مع بعض صور زعماء مصر السابقين: أحمد عرابي، ومصطفى كامل، ومحمد فريد، وسعد زغلول، ومصطفى النحاس، وجمال عبد الناصر!

تكلمي يا حياة!

لماذا صمتُك مطبق، ونظراتُك ساهمة لا تغادر أفق الحجرة!

ولماذا يمنعني صمتي وحزني — بعد مرور ثمانيةٍ وعشرين عاماً — عن أفق التحديق والبوحِ، لتتكلمي ..

هلْ تسمعينَ كلمات زميلك القديم؟ .. الذي كان يعتز بكِ، لكنه لم يُعبر عن هذا الإعزاز خوفاً من صرامة أبيك!

وظل يؤجل إعلان الحب إلى ما بعد التخرج .. توطئة للخطبة والزواج .. فلم يقل لك أبداً الكلمة التي كنتِ تشعرين بها، وتعرفينها معرفتك به: أحبك!.

.. اتركي عبراتك إذنْ، واتركي كتب عبد الحليم عبد الله .. وافتحي أبوابك للريح، واسمعي النبض القديم في صدرِ زميلك، وهو يُدمدمُ، وغادري الإطار الخشبي المترب!

هاأنذا في التاسعة والأربعين .. لم أتزوج بعد!

وأظنُّ أن شوقَ أبيك يتوق إلى كلمة واحدة منك، تُضيء أيامه القادمة! ..

تكلمي، فكلام المنفلوطي ومحمد عبد الحليم عبد الله لن يجيب على أسئلة الواقع الذي يُحاصرنا من كل جانب!

وزميلك (هل قلتُ حبيبك؟) الذي لم يكن يعبأ بالمنفلوطي وعبراته .. ومحمد عبد الحليم عبد الله وقصصه القصيرة ورواياته، أصبح مكترثاً بهما، مطيلاً النظر في آثارهما .. ويحفظ بعض الفقر والمقاطع من كلامهما! .. ألم تعجبي بهما أنت .. فكيف لا يحملهما في العينين؟

تكلمي، بمثل كلامَكِ القديم الذي يرن صداه في أذنيَّ، والذي لم يصدأ بعد!

...

تكلمي .. فزرقاء اليمامة صارت — بموتك — صامتة!!..
ولم تعد ترى الأشجار وهي تسير في طرقنا التي صارت معتمة!

الرياض 1997/5/15م

ظمأ

شاهدتك أيها الجار في بذلتك المكوية في الليل، تتحرك .. قادماً من ذمار .. تقبض راتب الشهور الثلاثة الأخيرة كما قالت زوجتك .. وآخر فرع من شجرة النبق يهوي، في آخر برد يناير القارس .. وزوجك ترفع يدها المتثائبة لتُحكم إغلاق الباب، وقد ختم على فمها وعينيها النعاس!

أيها المدرسُ المصريُّ الجارُ الخفيضُ الصوت!

لك ولدان كفلقة القمر، وزوجتك هيام صاحبتي، تجلس معي وقتاً طويلاً صباح كل يوم، نلتقي من العاشرة إلى الثانية عشرة إلا

ربعاً، في بيتك الصغير المكون من حجرتين ودورة للمياه، والذي يمتلكه محمد ناصر عم زوجي.

نلتقي وأنت تدرس للطلاب في المدرسة الابتدائية التي يدرس فيها نواف ابن أخي زوجي، في الصف الرابع الابتدائي .. وهو يرى فيك أباه الذي يعمل في السعودية!

الولد «جميل» ابني ذو السنوات الخمس .. آخذه معي يلعب مع ولديك، وكثيراً ما يأخذهما ليركبا الأرجوحة التي عملها أخي لجميل منذ ثلاثة أشهر!

ليت لي زوجاً مثلك!

ثلاثة أرباع رجال القرية يعملون في السعودية، ويطول غيابهم .. ولا يأنسون بزوجةٍ أو ولد!!

لا يأتي الرجل إلا كل عامين مرة، ويترك زوجته كالأرض البور، تنظر مواسم الحرث!

وقد يضع بذرة، لكنه لا يراها تنمو على عينه!

...

ــ مرة أخرى .. أعوذ بالله من وسوسة الشيطان .. ماذا كنتُ أقول؟! .. أشتاق للزوج الذي تركني منذ عامين وذهب ليعمل في مطعم بالرياض!

أيها الزوجُ البعيدُ .. لأنت رجل سيئ الطالع!، لم تنعم بدفء العلاقة الزوجية كما ينبغي؛ وأنا كذلك!

لم ننعم أنا وأنت بعش الزوجية السعيد، ولم يشبع أحدنا من الآخر ..

جميل يشتاق إليك .. ويسأل دائماً:

ـــ أين أبي؟

لماذا تبعد عنا؟ ..

كان يُمكنك أن تعمل في مطعم في الأحد أو في ذمار .. وتبيت معنا كل يوم .. أو تجيء كل أسبوع لتقضي معنا يومين إذا عملت في صنعاء.

أكان لا بد أن تسافر؟

أتريدُنا مرةً أخرى .. أم لن تعود؟ ..

كلما أرى المصري أتذكرك وأشتاقُ إليك؟

هل ستعود؟

واثقة من عودتك .. فمتى ستجيء إذن؟

الرياض 2006/4/2م

عندما زارني المتنبي

قال لي صديقي، وكنا نشترك في لجنة واحـــدة في تصـــحيح الشهادة الإعدادية، ونتذاكر ـــ أثناء التصحيح ـــ أخبـــار الشـــعر والشعراء، من العصور المختلفة:

ـــ سأرسل لك المتنبي اليوم.

وحينما رآني أرفع حاجبيَّ متعجبا دون أن أنـــبس بكلمـــة، أضاف:

ـــ ألا تعجبُك أشعار المتنبي وشوقي وبدوي الجبل وعمر أبي ريشة وأحمد الصافي النجفي ومن في طبقتهم؟

ـــ بلى.

قال جادا:

ـــ عثرتُ في مدينتنا الصغيرة على شاعر من طبقتهم، وأسمعني بعض قصائده الرائعة في الغزل والوطنيات.

كدتُ أتعلق برقبته وأنا أسأله:

ـــ أين هو؟ وأين يعمل؟

قال مُتثاقلاً:

ـــ سيقول لك بنفسه عندما يزورك في بيتك اليوم: من هو، وأين يعمل!

وأضاف وهو يرشف القطرات الأخيرة من كوب الشاي:

ـــ سيزورك عصر اليوم، ويعرض عليك قصائده.

...

بعد العصر كان على باب بيتي من ينادي:

ـــ هل هذا بيت الأستاذ حسان؟

أجاب ابني الصغير:

ـــ نعم.. تفضل.. أقول له من؟

ـــ المتنبي.

...

رحبت به، وسألته عن اسمه، فقال:

ـــ المتنبي؟

وحينما فتحت فمي تعجباً، ضحك بصوت عال، وقال:

ـــ أنا واحد من خمسة في مصر يحملون اسم المتنبي.

قاطعته:

ـــ لقب المتنبي..

قال غاضباً:

ـــ أقول لك اسمي: المتنبي، تقول لقبا؟!

قلتُ صادقاً:

ـــ آسف.. يا صديقي.

قال جادا:

ـــ قبلتُ اعتذارك (وأضاف) أشهرنا الأستاذ المتنبي وهو ناظر مدرسة إعدادية في دمياط، وأنا أقلهم.. المتنبي سعد، حاصل على الثانوية العامة من الأزهر الشريف، وأعمل بإدارة المياه بالزقازيق.

طلبتُ منه أن يُسمعني قصائده، فقرأ لي بضعة أبيات (كلها مكسور)، فقاطعته:

ـــ ألم تعرض قصائدك على أحد؟

أجاب غاضباً:

ـــ .. هل تسخر مني يا أستاذ؟.. أقول لك أنا المتنبي .. تقول لي: هل عرضت قصائدك على أحد؟

***

غضب مني حينـــما أخبرته أن بعض قصائده مكسورة، وقال لي: يبدو أنك لا تعرف العروض، فأنت تكتب "شعر التفعيلة".. أما أنا فقد درستُه في معهد الزقازيق الديني على أيدي شيوخه!

جلس برهة بعدها، ثم استأذن في الانصراف.

... وقابلني عدة مرات بعدها، سألتُه في مرة، وكنا أمام بقالة نشتري بعض مواد التموين:

ـــ هل تنشر قصائدك الآن؟

أجاب في انكسار يشوبه الحزن:

ـــ نفسي مسدودة!، الناس مشغولون بكأس العـــالم (كـــان ذلك عام 1982م) وتركوا إسرائيل تقتحم بيروت وتجتاح لبنـــان، وجعلوا خليل حاوي ينتحر.

سألته:

ـــ هل قرأت شعر خليل حاوي؟

قال:

ـــ قرأته و لم أستسغه، لأنه يكتب نثراً، ويدعي أنه شعر!!

وابتسم وهو يمد يده إلى "مخطوط" يحمله تحت إبطه:

— هل أُسمعك إحدى قصائدي الأخيرة التي كتبتها عن غزو لبنان؟

فاعتذرتُ لأن هذا موعد أخذ ابني من «دار الحضانة».

فقال:

— لا بأس.. أسمعك آخر ما جادت به مشاعري، وأنــت في طريقك للحضانة.

وبدأ يلقي "قصيدته!" بصوتٍ عالٍ، ونحن نمشـــي، والنـــاس ينظرون إلينا .. مستنكرين!

الرياض 2003/6/8م

امرأة وعصافير

1-أحمد راسم كمال:

الصمتُ خليلك .. تقدّم أيها الرسام الشاعر المولع بالسكون خطوةً إلى الأمام .. أو خطوتين إلى الخلف.

سيان.

فالليل الصامت صديقك .. وأنت تُقلّب صورها الملونة بين يديك (رغم أنك تزوّجتها في زمن الأبيض والأسود) .. نظرتُها

تؤرقك .. بسمتُها تؤرقك .. فتحة صدرها تؤرقك .. وضحكةُ سعيد نعمان صاخبةٌ في أذنيْك! .. تقتلك .. تُذكّرُكَ بخيانتها .. ووحوبِ قتلِها .. وبسمتها المُراوغة التي تُشبه الرصاصة تخترقُ تجاويف عظامك!

تُحاول أن تدفنها برفق .. لا .. اقتلْها برفق في ذروة مجد حبك لها!

هل كانت أختها العانس سعاد وراء زواجها من سعيد، حيثُ تقطن في شقة واسعة من بيته الكبير؟!!

هل تزوّجته برضاها أم أن الأمر كان مؤامرة؟

لماذا عدتَ إليها إذنْ؟

لكن هل يُعطيك حبُّها المجنون لك حق التساؤل؟

طلقتَها عشرةَ أعوام .. تلك التي أمضيتها في الجزائر!

وعندما عدت .. وجدتها في انتظارك .. بعد أن تزوجت من التاجر سعيد نعمان، وأنجبت منه ابنتيْن!

طلقتها بإرادتك .. فتزوّجها سعيد، ثم طلقها .. وتزوّجتها ثانية!

لماذا تشك في عاطفتها تجاهك الآن .. يكفيها أنها تخلص في تربية ولدك وابنتيْه!

أصيب طليقها سعيد بجلطة مساء أمس!

هلْ تقتلُها لأنك ظننتَ أنها تبكي حينما سمعت خبر إصابتِه؟!

حينما اقتربتَ منها لم تجد دموعاً، وإنما كان وجهها عابقاً بالسكينة!

قالتْ:

ــ طلبتُ الطلاق منه رغم أنه كان ودوداً معي .. لم يؤذ سمعي بكلمة واحدة طوال زواجنا سبعة أعوام!

ــ إذن .. لماذا تزوّجته في البداية؟

ــ لأنك طلقتني وذهبت إلى الجزائر وأنا ابنة خمس وعشرين سنة .. وأصررتَ على ألا تعود من الجزائر إلا بعد عشرة أعوام، فتزوّجتهُ خوفاً من الفتنة!

ــ ولماذا عدتِ لي بعد عودتي؟

قالت وهي تتنهّد:

ــ لأني للأسف أحبك!

تنهّدتَ:

ــ لا أتصوَّرُ ذلك!

أضافت وهي تنظر إلى الناحية الأخرى .. حيثُ صورتها التي رسمتُها بريشتي وفازت بجوائز في عدة معارض:

ــ هل تنسى حبنا القديم وزواجنا ثلاثة أعوام .. هل تنسى أنك أبو محمود؟

...

ليلة الأمس قلتَ لها وأنتَ تحملُ في يدك تذكرة السفر:

ـــ سأرسمك بعد عودتي من بيروت في لوحة جميلة أسميها "حوار العصافير".

تأملتَ في الضوء الشاحب صور العصافير التي رسمتَها في لوحاتك الأخيرة، أبصرتُكَ وأنت تتأملُ قالتْ إنها وجدتْها عصافير بائسة تبعث الحزن .. وتستدر الشفقة في القلب!

بكَيْتَ.

...

لماذا تُصر في لوحتَيْك الأخيرتين على أن ترسم وجهاً يُشبه وجهها في حديقةٍ .. والعصافيرَ ترسمها حزينةً مؤرَّقَةً .. لماذا تصرُّ على أن تذبح عصفورتك دون ذنب جنته؟!

سأُشارك في معرض فني في بيروت هذه المرة!

لا يتطلّب ذلك تطليقة جديدة مني!

فليتأجل مشروع القتل بعد عودتي.

لأُفكرْ في روية هناك، فربما أصلُ إلى حل!

ربما بزغت فكرة جديدة في مخيلتي عن سبب بكائها على إصابة زوجها السابق!

....

قال لي الناقد التشكيلي صابر حودة أمسِ إن لوحاتك معتمة، وصورة زوجتك تحتل خلفية لوحاتك .. خطوطك تكشف عن حزن كبير يجتاحك! .. وفي لوحاتك الأخيرة تتحبر ريشتك على المخلوقات الضعيفة! كأنك تُبارك الجبروت والقوة، وتحتفي بالغربان والخفافيش!!

حملتُ حقيبتي متوسطة الحجم، نظرتُ في المرآة، عبستُ، ابتسمتُ راضياً عن فكرتي الجديدة .. تأجيل القتل عشرة أيام! ..

أصبحتُ أرسم كثيراً .. رسمتُ في السنتين الأخيرتين نحو خمس وستين لوحة! أبدعتُ عددا كبيراً من اللوحات يماثل ما رسمتُه في عشرين عاماً من حياتي السالفة .. التي كانت بلا أحلام أو مُفاجآت تقريباً!

قلتُ في صوتٍ جاف، حاولْتُ أن يكون حنوناً:

ـــ سأعود لكِ يا مريم .. ونفكر في الأمر بهدوء.

ـــ أي أمر؟!!

ـــ مستقبلنا.

قالتْ كأنها تقذفني بحجر، دون أن تغيِّر نبرتها الحنون:

ـــ هل أنت مجنون؟!

قلتُ في آلية:

ـــ مقبولة منك!

قالتْ وكأنها غيرُ متأثرة بما أفكرُ فيه:

ـــ باقٍ ثلاث ساعات على السفر!

نظرتُ في الساعة لأتأكّد مما تقول.

قالت في صوت يمتلئ بالحزن:

ـــ متى تعود؟

ـــ بعد أسبوع .. أو عشرة أيام على الأكثر.

بلعتُ ريقي:

ـــ أين الولد والبنتان؟

ـــ لم يعودوا من المدارس بعد ..

ـــ لأغير ملابسي .. إذن!

اتجهتُ إلى حجرة النوم، وأشرتُ بيدي لتلحقني .. وجدت كلماتي مبعثرةً على الأرض .. حاولتُ أن أجمع شتاتها .. أضمها بحنان .. لكني لم أستطع!

حجم التعاسة الذي تُفجره الكلمات كان كالفخاخ المنصوبة التي جعلتها تقع على وجهها وهي تتذكر أوقات التعاسة المتكررة معي .. جرعات الألم التي فجرتُها كان من الصعب أن تتقبلها!

أخفت وجهها بين يديْها .. وانخرطت في البكاء!

2–سعيد نعمان:

لم أكن قد رأيتُها منذ خمسة عشر عاماً .. رفضتني أمها حينذاك دون مبرر .. هي حاصلة على بكالوريوس التجارة، وتعمل في مجلس المدينة، وراتبُها عشرون جنيهاً .. وأنا من كبار تُجار طنطا .. وأكسب في اليوم الواحد عشرة أضعاف راتبها.

لعلَّ أمها ظنت أنني غير متعلم!

قلتُ لأمها مائة مرة، إنني متخرج من كلية الحقوق بجامعة القاهرة التي تخرج فيها الكثير من الوزراء قبل الثورة وبعدها!

حينما رأيتُها منذ ثمانية أعوام أبعدتُ الصحيفة القريبة من أرنبة أنفي وتنبّهتُ! .. هذا صوتُ مريم .. وهذه رائحة عطرها!

لم تكن تضع عطراً معتاداً أو رخيصاً مثل غيرها من القرويات؛ فأبوها شيخ القرية وأول متعلم في هذه القرية التي أخرجت بعد ذلك — بفعل الثورة ومجانية التعليم — المئات من الموظفين المرموقين والصغار!

حينما مرت عليَّ أختها سعاد بعد يومَيْن تدفعُ إيجار الشقة — التي تسكنُها في عمارتي الأولى — سألتُها عن مريم، فقالت: إنها مطلقة، ومعها ولد عمره ثلاثة أعوام!

بُعث الحبُّ القديم في صدري، فقلت سأحاول من جديد!

أذكر أنني رأيْتُ طليقها ذات مرة يسير معها، فتعجّبت!

مريم .. لا أحلى ولا أجمل!

وطليقها .. رأس صغيرُ حليق، كأنه رأس هدهد .. وساقان عجفاوان كأنهما ساقا ماعز .. وعينان غائرتان كأنهما كهف قديم يوشك أن يتوارى بفعل الزمن وعوامل التعرية.

أهذا يا مريم من فضّلْته عليَّ؟!

طلبتُ من أختها سعاد أن تكلمها بشأني، فأنا لم أتزوّج بعد .. وبعد أخذٍ وردٍّ تزوّجتني، وعشنا معاً أحلى أيامنا!

...

لا أدري كيف دخل الشيطانُ بيننا، فطلقتُها ليعيدها أحمد راسم لعصمته من جديد؟

الحمدُ لله أن اجتزتَ الجلطة التي فاجأتني من يومَيْن.

أحياناً أسألُ نفسي .. هل أسأتُ إلى مريم؟

أردُّ على نفسي:

ــ لم أسئ إليها .. وحاشاي أن أفعل ذلك .. فالذي يحب شخصاً لا يقدر على الإساءة إليه!

قال لي أحد أصدقائي: إن زوجها يُعاني من اضطرابات نفسية نشأت في الفترة التي أمضاها في الجزائر بعد إقصاء الإسلاميين ومطاردتهم؛ فقد كان يعملُ في إحدى الصحف التابعة للعسكر، وعاش سبع سنوات يخشى الاغتيال والتصفية.

وأضاف وهو يذبحُني:

ـــ وأنه في ذات نوبة جنون قد يقْتل مريم!

3–سعاد جبر:

مازال بأذنيكِ يا مريمُ نقيق الضفدع الذي رحل ذات صباحٍ باكر إلى أرضٍ بعيدة، تمتلئ بالطحالب .. ولم يعدْ أبداً! .. عاد جسماً دونَ روح .. ثم اختطفكِ منا!

أمام بابك البحري بعضُ الأصداف تتناثر في الرمالِ المحاذيةِ لأشجار التوت الصغيرة التي غرستُها أمام بيتِك قبل أن أبتعد عن حياتك وأراقبكِ من بعيد.

هاهي اشتدّ عودها، وتصل إلى أسفل شرفتك العالية!

تتدثّرين بالريح وبأردية غبار.

تسعلينَ .. ألمك يخرجُ من أحشائك!

ثمة كلب عمره عامان .. يرقدُ تحت شرفتك، يؤلمه استيقاظك الدائم!

يطلُّ وجهُ الأب من السطحِ إلى غرفتك ـــ التي كانت دافئة ـــ فتختفي ملامحك، وتتشنج كحتك، وترتفعُ حرارةُ صغيرتك .. فتنضحين رأسها بقطرات ماء!

ها أنتِ ـــ يا مريمُ ـــ تحملين في يديْك أغصانَ شتاء لا يُنبئ بربيعٍ قادم!

كم كنتِ تولعين بالليلِ المحموم، وبالأرديةِ القصيرةِ الملونة التي تكشفُ للمواسمِ عن خصوبةٍ جميلة.

كلما رأيتُك كنتُ أتذكر وصف تشيكوف لبطلته «ماشا»: «كانت بالضبط تملك هذا الجمال الذي يُدخل تمليه في قلبك، من حيث لا تعلم، الثقة بأنك ترى ملامح سوية، وأن الشعر، والأنف، والعينين، والفم، والعنق، والصدر .. وكل حركات هذا الجسد الشاب قد اتحدت كلها في نغمة هارمونية متكاملة، لم تُخطئ الطبيعة فيها خطأً صغيراً واحداً».

كأنه كان يرسمك أنت!

ها هو طليقك السابق «أحمد راسم» يعودُ مستبقاً خفافيش الليل، وفي يده زنبقة مسمومة، وأنت تحلمين بالطيور الخضر، وبالزنابقِ المائيةِ الملونة.

إنني أرى في يديه كأس السم .. ألا ترينه؟!

إنه يتقطرُ في دمع عينيكِ .. المنهمرِ دائماً.

تغوصين في شقتك الأنيقة الواسعة في نهر رمادٍ يتضمّخُ بالقهر، فتختفي صورتُك في نهْرِ بكاء، خلف صوره البراقةِ اللامعة .. تتمنين أن تجتازيه ذات ضحي .. مازالت ملامحُه لا تبين!!

4–مريم جبر:

سافر أحمد راسم إلى بيروت أمس.

تأكدتْ أن الساعة تقترب من العاشرة صباحاً.

هذا هو موعد استيقاظي اليومي.

حجرة نوم فاخرة .. عدة مناظر لعصافير في مناقيرها أغصان زيتون.

قميص نوم شفاف يُظهر مفاتن جسدي الذي يبدو أنه سيشيخ قبل الأوان!

على المنضدة المجاورة للمرآة الكبيرة صورتي وأنا واضعة وجهي بين كفيَّ.

يدخل عصفور صغير من النافذة الزجاجية نصف المفتوحة التي تُغطيها الستائر السميكة.

تتبعه أسراب من العصافير ذات الأجنحة الصغيرة الملونة .. تطير في سماء الحجرة.

أعقدُ يديَّ على صدري، وأُغمض عينيَّ.

حينما رأيتُ الغراب يعودُ ثانيةً، ويفرد جناحيه الكبيرين على حافة الشباك الزجاجي أحسسْتُ بدوارٍ مُباغت!.

تعبث يداي في مفاتيح المسجل وأنا أدير شريط أغنية فايزة أحمد، التي يُحبُّ راسم سماعها:

«يا أمه القمر ع الباب»!

أصابعي مرتبكة .. والمسجل صامت!

ـــ لماذا لا يُغني؟!!

أُفلح أخيراً في تشغيل المسجل!

يضحك الغراب الواقف على حديد النافذة في الخارج ممّا يرى ويسمع.

تُفاجئني برودة مباغتة!

أتمدد تحت اللحاف، ... والعصافير لا تكف عن التحليق في سماء الحجرة التي يفترسها ظلٌّ جناحيْ الغراب.

أزمُّ شفتيَّ.

أغلقُ المسجل .. وأغمضُ عينيَّ .. أُغطّي وجهي باللحاف الوردي..

هل اختفى ظلٌّ جناحي الغرابِ مؤقتاً؟! ..

العصافيرُ مدَّتْ مناقيرها .. أخذت تنقر وجهي .. تُغلقُ المسجّلَ لأستكملَ سماع أغنيتها!

ديرب نجم 2005/8/26م

قبل السقوط

هل شاهدتني في الليل، وآخر فرع من شجرة التوت يهوي
وأنت يا زوجي — الغيور — ترفع يدك المتثائبة لتُثبِّت الفرع
في الشجرة حتى لا يهوي، وقد ختم على فمك وعينيك النعاسُ!
هاهو أخوك الشاب يعدني أن يقطف الثمرة التي حرّمها
الزوجُ على نفسه .. مادام يُدمن الغياب، حتى لو كان حاضراً!

...

— مرة أخرى .. يا من اسمك زوجي .. أيها الرجل
الخرتيت، تريدُني مرةً أخرى أن أسقط .. وأنا على شفا الموت ..

تريدني أنا المريضة بالكبد أن أخطئ!؟

.. اترك لي لحظةً أعي فيها .. كمْ عاينْتُ قبري في هذه الدنيا القاسية، وتزوجتك ـــ أنا غير المحظوظة ـــ أيها الرجل الفظ، الذي لا يحبُّ غيرَ نفسه!

لماذا جئت بأخيك يسكن معنا في هذه الشقة الصغيرة؟

هل كل ميزتها أنها بجوار جامعة القاهرة؟

يُمكنك أن تعطيه بضعة جنيهات ليسكن في المدينة الجامعية، أو أن يعيش مع زميل له في سكن خاص .. الكثير من الطلاب يفعلون ذلك!

...

لماذا ترجمني بأحجار كلماتك دائماً

وأنت مُعلّقٌ في سارية الضياء

لا تُخطئ .. ، ولا تتعثّرْ .. ، ولا تحيض ..

ولن تكون عقيماً أبداً ..

***

دعْني أمضغُ وهْمي ، وأرقص .. ميتةً في عالم الأحياءْ!

وقُل لي .. ـــ الآن! ـــ حكايات الحب والعطاء التي لم تقلها لي ولم تفعلها طوال عُمرك .. حتى لا يخطفني الموت قبل أن تصل إلى المياه والثمر، و ترى النجوم والقمر!

...

يا للخيبة! أنتَ لم تعرف إلا ظلمة الليل، ولم تعشْ إلا بيْنَ الجمادِ والحُفر .. ولم تر إلا الحجر الجامد ..

الذي لم تستطع أن تُفجِّر منه عيونَ الماء!!

الرياض 2005/5/31م

ليلة هند الأخيرة

نظرة حزينة تبدو في عيْنيْها، ترنو إلى ممدوح بحقد وكراهية .. يستبقها الحزن في ولوج دوائر مغلقة.

لحظات شاحبة تكتنفها .. تحوطها أكثر من علامة تعجُّب، لا تدري سبباً لها!

تكاد رأسها لا تستقر على إحساس واحد!

تعبث أصابعُها بشعر رأسها .. أسود وناعم .. لكنها تحس به إحساساً مُغايراً الآن فقد تخللته بعض الشعيرات البيض .. لم تضع الصبغة منذ عشرين يوماً .. كأن شعرها صار عارها .. أحست كأنه أسلاك هاتف عانت في العراء طويلاً من الصدأ والمطر وبيض الذباب!

هل هذا شعرك الجميل الذي كنت ترينه فخرك وسر جمالك؟

تحسُّ بصداعٍ يكاد يفلق رأسها، وبنهر ألمٍ يتدفّق في عينها اليسرى.

سترك يا كريم!!

هل من حقي أن أبحث عن الستر الآن؟!!

نظرت في المرآة فوجدت عينيها ملتهبتيْن!

أجّلت الرحيل إلى القرية، حيث الدار الكبيرة التي تعيش فيها أرملة أخيها إلى صباح الغد.

أرادت أن تُحدِّث ممدوحاً عن نفسها، وعن شوقها إلى العودة إلى القرية التي تركتها من ثلاثة عشر عاماً، وتلاشت في المدينة الكبيرة .. أرادت أن تكلمه لأول مرة .. ليتعرّف على مشاعرها .. مرة واحدةً .. لكنها أبعدت الفكرة، وقالت: ما فائدة المعرفة؟

ضحكت هند ضحكة ميتة الروح!.

كيف يكون الآخر جحيمك، وكيف تكون الكلمة سيفاً تقتل وتسفك الدماء؟! .. هاهي أختها قالت لها أمس في لحظة غضب، عندما زارتها، لتجلس معها ومع ابنيها فترةً تنعم فيها بالدفء العائلي:

ـــ ظللتِ طول عمرك ساقطة وسافلةً، فهل تتوبين الآن قبل أن تموتي .. فيقبل اللهُ توبتك؟!

كانتا فرعي شجرة، وافترقتا!

تعلمت «عائشة»، وحصلت على بكالوريوس تجارة، وتزوجت وأنجبت ولدين: أحدهما في الصف السادس الابتدائي والثاني في الرابع.

أورقت شجرتُها ..

أما شجرة «هند» فلم تثمر إلا الشوك والحنظل!

أين الحب والتآزر والرحمة بينهما؟

الكلمات تنفذ في أعماقها كالخنجر.

هاهو ممدوح ينام سعيداً بفتوّته المهراقة على فراشه الوثير.

هل تذكّره ببداية السقوط؟.

قال لها ممدوح (في سخرية ذات صباح):

ـــ ما هذا الذي تفعلين يا هند؟! .. أراك تُصلين؟!

لماذا يخشى هذا الخرتيت من صلاتها المتقطعة، وهي لا تكاد تصلي إلا الصبح والعشاء؟!! ..

فلتعذرني يا ممدوح .. لم أشعر بالسقوط إلا أمس بعد كلام شقيقتي!

كأننا لا نسقط إلا إذا عرف الناس سقوطنا!

ضحكت عليَّ ـــ يا أستاذ ممدوح ـــ أول مرة .. وقلت سأتزوجك، زواجاً كزواج الناس، ولكنه بلا عقد ولا شهود ولا

ولي! .. يكفي أني أحبك وأنت تحبينني .. الزواج اختيار، بعد حب .. أليس كذلك؟

أخي الوحيد اعتبرني ميتة .. لأني تزوجتُ بدون علمه! كيف لو عرف أني أعيش مع ممدوح بلا زواج؟! .. ليتني رأيته قبل موته في حادث مروري منذ شهرين!

مرت السنوات معك يا ممدوح! .. الأولى والثانية والثالثة ... والثالثة عشرة!

تعبتِ من العدِّ يا هند!

هل كان هذا الزواج (أو بالأصح هذا السقوط) من مصلحتك ومصلحتي؟! .. أم كان وبالاً عليَّ وعليك؟!!

الثانية هي الإجابة الصحيحة بكلِّ تأكيد!

هاأنت مفصول من عملك منذ شهرٍ تقريباً!

اتهمك السادات ـــ وأنت الأستاذ بكلية الزراعة ـــ أنك من رموز الفساد الجامعي، اتهمك بإفساد الطلاب، وأخرجك إلى وظيفة إدارية بوزارة الزراعة.

.. أليس من الأفضل أن تصدق معي مرة واحدةً؟!.

هل نحن زوجان؟ .. وإذا كنا زوجين فلماذا أصررت على عدم الإنجاب مني؟ .. ولماذا صار زواجنا عقيماً بلا ثمرات؟

لقد قتلتني يا ممدوح بكلماتك:

ـــ أنت مازلت مراهقة يا هند! .. وماذا تريدين من الزواج أكثر مما نحن عليه الآن؟ .. ألا يكفي أننا نعيش معاً من ثلاثة عشر عاماً؟

ـــ إننا نعيش هكذا من عام 67.. بلا عقد ولا شهود!

ـــ ألسنا متزوجين؟

ـــ نعم .. زواج بلا وثيقة زواج، ولا شهود، ولا فرح!

أخلى للتعجب مكاناً في تعابير وجهه السمين الأسمر المجعّد:

ـــ لقد فرحنا بما فيه الكفاية، طوال عقد ونصف من السنوات الجميلة!

ـــ لم أفرح أبداً.

ـــ أية أفكار مجنونة تُطاردك الآن يا هند؟!

ـــ أنا أقترب الآن من السادسة والثلاثين! .. ولم أنجب بعد .. وأريد أن يكون زواجاً شرعيا لأنجب طفلاً!

ـــ ماذا تقصدين؟

ـــ أن نذهب إلى المأذون .. بحضور أختي عائشة، وأن نكتب وثيقة أدعها عندها!

قال في ثورة حاول أن يداريها:

ـــ هل جُننتِ؟

ردت بشدة:

ـــ وهل الذي يُطالب بالشرع مجنون؟

قال وهو يمزج كلامه بسخرية مرة:

ـــ أنت بعدُ مازلتِ صغيرة؟

قالت كأنها تتوسل:

ـــ أريد الستر يا ممدوح .. وأن نعيش مثل الناس .. عيشة يرضاها الله ورسوله .. فربما تُغفر لنا خطايانا، ولو كانت مثل زبد البحر!

ـــ الناس متخلفون يا هند! .. وقلت لك قبل أن نعيش معاً: سارتر يعيش مع رفيقته بلا زواج!

ـــ أذكر .. قلت لي هذا في مارس 67 قبل الهزيمة!

ـــ حينما زار مصر زيارة رسمية مع عشيقته سيمون دي بوفوار .. والجميع يعرفون ذلك!

نعم، وهو ذلك الوقت التعيس الذي عشنا فيه معاً في شقة واحدة بلا زواج!

ـــ ماذا تقصد بالجميع؟

ـــ الذين دعوْه من المسؤولين وصناع القرار، والذين احتفوْا به من القراء!!

ـــ وما علاقتنا بسارتر؟!

ـــ ألسنا مثقفين كبيرين مثلهما يا هند، ونقرأ أعمالهما بلذة وجنون، وكنا ممّن حضر محاضراتهما حينما كنا ندرس أنا وأنت في باريس في أوائل الستينيات؟!

قالت في نفسها:

ـــ النقاش غير مجد معك .. وأنت يجب أن تموت بيديَّ .. هذه هي العدالة المطلقة.

انفعل لما سمع جملتها الأخيرة .. قال:

ـــ أية عدالة مطلقة يا هند؟!

ـــ ...

صرخ في وجهها:

ـــ أنتِ لست أكثر من طفلة صغيرة لم تفهمي الوجودية التي ظللنا طوال عمرنا نبحث عنها، وندرسها، ونطبقها.

وكأنه يُخاطب نفسه:

ـــ هل هذه هند .. التي كنتُ أشعر معها بالسعادة طوال ثلاثة عشر عاماً؟!

...

إنها تشعر بعذاب لم تجربه من قبل.

يكاد يقتلها السؤال:

ـــ كيف عشتُ معه كل هذه السنوات بلا عقد زواج؟ ..

هل أصبحتِ بلا دين يا هند؟!! .. هل عشت معه كل هذه السنوات عاهرة؟! .. ألا تخشين سخط الله وعذابه؟! .. وكيف عشتِ في هذه الغيبوبة مع هذا المجرم كل هذه السنوات؟

لماذا لم تُراجعي نفسك من قبل وأنت أستاذة الفلسفة في الجامعة؟، ولماذا مشيت وراء هذا الكلب العاهر؟! .. لقد كفرت بالوجودية وكفرت بماركس، لكن كفرك بهما جاء متأخراً .. كان ينبغي أن تُراجعي نفسك بعد علاقتك الآثمة به بثلاثة أشهر، وليس ثلاثة عشر عاماً .. منذ ضُربتْ الطائرات في صباح الخامس من يونيو الحزين وهي رابضة في المطارات! ولم تقم بطلعة واحدة. فلماذا تعيشين السقوط مع ممدوح؟!

.. نسيتِ الصلاة كل هذه السنوات، ثم عدت لتتذكّريها في فرضيْن فقط: الصبح والعشاء؟!!

تكاد رأسها تنفجر!

تعرّفت عليه في باريس في أوائل الستينيات .. فأحببته .. وكانت حياتي غير الطبيعية معه سلسلة من العذاب والإخفاق، تتخللها لحظات من المتعة التي يعقبها العذاب.

إنه شيطان كبير.

هل هو الذي كان وراء تركي العرض الذي قدمته لي جامعة السربون للعمل بها .. والتحاقي بجماعات التمرد التي سارت وراء سارتر كالقطيع؟

ابتسمت ابتسامة حزينة، وهي تقول لنفسها:

ــ إن الله غفور رحيم.

أخلت للشوق مكاناً في قلبها:

ــ هل يُقَدَّر لي أن أتوب .. وأن أُواظب على الصلاة .. وأذهب إلى الأراضي الحجازية لأحج أو أعتمر؟!!

....

.. في الصباح تسرب خط من الدماء من تحت الباب، وعلى باب الشقة كانت أصابع يد هند الخمس المضمّخة بالدم مازالت معلقة!

وعندما فاحت بعد يومين رائحة ممدوح النتنة، اتجهت هند إلى نقطة الشرطة في قريتها .. لتعترف بكل شيء!

الرياض 2006/3/12م



بعد فوات الوقت!

لم تجد علياء في عينيها دموعاً لتبكي زوجة خالها عندما ماتت!

فحينما ذهبت «علياء» إلى القاهرة، بعد وفاة أمها — هي وأختها «عبير» — لتُقيما مع خالهما «محمود» المهندس الزراعي، والمشرف بمصنع العطور بالطالبية، أثناء دراستهما الجامعية .. رأت علياء في «امتثال» زوجة خالها امرأةً فظةً غليظةً، و لم تكن عبير ترى ذلك، فسكنت علياء في المدينة الجامعية لتهرب من جحيم بيت خالها .. بينما لاذت عبير بزوجة خالها، وعاشتا معاً سعيدتيْن!

— هل كان الخطأ فيَّ أم في عبير أم في امتثال — زوجة خالنا — التي كانت لا تتزل لأمي من «زور»؟!

سؤال كان يُفجر رأس علياء، لكنها لم تجد له إجابة!

مرت سنوات ... وتقابل الجميع في مأتم زوجة الخال، وهي مناسبة من المناسبات التي تجمع أفراد الأسرة، وسمعت علياء من خالتها:

ـــ أنت تشبهين أمك ـــ وقد كانت أمك أجمل فتاة في القرية ـــ بينما أختك علياء تُشبه خالها محموداً!.

وأضافت الخالة:

ـــ هل تعرفين أن أمك هي التي اختارت زميلتها «امتثال» الموظفة في السجل المدني زوجةً لخالك محمود، ومن يومها انقطع الودُّ بينهما؟

وضحكتا ..

وعرفت علياء في ذلك الوقت الإجابة عن سؤالها القديم!.

ديرب نجم 1999/7/22م

البنات .. البنات

أجلس بجوار تمثال عرابي على المقعد الحجري المستطيل وبجواري سعاد. سعاد الأخرى تغني في المسجل الذي ينطلق من محل العصير المُقابل «البنات .. البنات .. أجمل الكائنات» .. في مرات سابقة جلسنا مثل هذه الجلسة .. لكن لم تكن سعاد حسني تُغني!. تضع سعاد كفها أسفل ذقنها .. بهدوء شديد أمد يدي وأسحب يدها، وأقول مداعباً:

ــ ما الذي يشغل الجميل؟

فتبتسم في مرارة.

نحن متزوجان تحت إيقاف التنفيذ؛ فقد عقدنا قراننا منذ ثلاثة أعوام .. ولا أعرف بالضبط متى نعبر المضيق: من التنظير إلى التطبيق؟!

سعاد وأنا من شارع واحد (هو شارع فاروق) ومن مدينة واحدة (هي مدينة الزقازيق) ومن كلية واحدة (هي كلية الآداب) تخرجنا .. هي خريجة فلسفة وأنا خريج جغرافيا!! .. فلماذا تكون سككنا مغلقة دائماً، ولماذا لا نستطيع أن نضع الحلول لمشاكلنا الكثيرة؟

الفلوس قليلة .. ولم يدركنا قطار التعيين، بعد عناء الدراسة الطويل! .. عملنا في مدرسة خاصة .. نعمل بالحصة في هذه المدرسة القديمة المشهورة التي عمرها أكبر من عمر آبائنا .. مدرسة خاصة، وفلوسها قليلة .. والشقة التي يبنيها لي أخي الذي يعمل طبيباً في الإمارات تحت الإيقاف أو الهدم .. فمجلس المدينة يقول إنها مخالفة للتنظيم .. وأن أخي بناها بدون رخصة!

وأثاثنا مركون منذ عام في شقة أمي الرطبة التي لا تمرُّ الشمسُ من ناحيتها، والتي لا يدخلها الهواء!

سعاد حسني انتهت من أغنيتها .. ومازالت سعاد تضع كفها أسفل ذقنها .. تنظر للحافلة التي ستقلنا إلى شارعنا في ضيق بالغ .. تنظر إلى التمثال البرونزي للزعيم أحمد عرابي .. وتتمتم في كسل، وهي تنظر إلى الفرس الذي يركبه عرابي:

ــ تحفة فنية حقيقية ..

وتبتسم لي ضاحكة:

ـــ ليتك تجد مثله لتركبه ليلة زفافك على عروس غيري.

ضحكت وأنا أقول:

ـــ لن أتزوج غيرك .. إلا إذا كانت العـــروس هـــي ســـعاد حسني!

ضحكت، فهي تعلم أن سعاد حسني قد ماتت!

...

وضعت يدها على صدري .. لا بد أنها أحست أن قلبي يدق بسرعة واضطراب!

نظرت للناحية الأخرى، وخلعت «الدبلـــة»، ووضـــعتها في حقيبتها .. وقفزت في خفة لتقلد سعاد الأخرى، وتُغـــني في أنـــين مكبوت:

ـــ البنات .. البنات!

وسالت من عيني دموع كثيرة!

الرياض 2006/5/22م

الرؤية والتشكيل الفني

بقلم: أ.د. خليل أبو ذياب

تتوجّه هذه المجموعة القصصية الجديدة لتشكل بقوة وعمـــق ووضوح قمة الهرم الإبداعي في فن القصة القصيرة في أدب الأستاذ الدكتور **حسين علي محمد** لما وفر لها من مختلف التقنيــات الــتي حذقها ووعاها ومارسها ونشرها في مجموعاته القصصية المتنوعـــة التي وقفنا عندها في دراسات متنوعة ، والتي ترتفع بهذا الفن الرائــع الرشيق إلى أسمى درجاته وغاياته .. ولست أقصد مــن وراء هـــذا التقدير أو الحكم التقليل من القيم الإبداعية التي توافرت في ســـائر مجموعاته القصصية التي كانت لنا معها وقفات متنوعة بدءا مـــن " أحلام البنت الحلوة، وانتهاء بـــ " مجنون أحلام"؛ فقد وفر القـــاص لها جميعا أقدارا هائلة من الفن والإبداع تجسد ترسّخ قدمه في تربـــة

هذا الفن وأصالته وتفوقه في إبداعه، ويرتقي بها إلى سدة الصدارة لهذا الفن الأدبي الرفيع المتميز!

ولا أحسبني هنا مغاليا أو مبالغا في الحكم أو التقدير لأن القراءة التالية ـــ فيما أحسب برغم ما اعتادها من قصور، وتطرق غليها من تهافت ـــ ستكشف شيئا متواضعا، وتؤكد قدرا صالحا من هذا الحكم وما يسوده من اعتدال وحيدة ظاهرين!

ومهما يكن الأمر فحسبي أن هذا الحكم لم يكن أكثر من خلاصة واعية لتجربتي الخاصة ووعيي المحدود وتقديري اللا موضوعي لأقاصيص هذه المجموعة .. وظني كبير في أن كثيرا من القراء سيشاركونني هذا الرأي أو الحكم الذي أرجو ألا يكون مجاوزا للحد ، أو مصادما للحقيقة والواقع لسبب أو لآخر ..

ـــ الرؤية الموضوعية في المجموعة:

المتأمل لقصص مجموعة "الدار بوضع اليد" التي بلغت ست عشرة قصة يتبين بيسر وعفوية طائفة من المحاور والموضوعات التي طرحها القاص الفاضل فيها لتكشف عن غاياته ومقاصده التي هدف إليها حيث دارت على أربعة محاور أو موضوعات رئيسة حرص القاص الفاضل على رصدها فيها ؛ وهي : المحور / الموضوع العاطفي الوجداني ؛ وقد استقطب سبع قصص منها هي : 3 " نوال تقرأ الحقول " ، 6 " حزن لا يموت " ، 10 " طما " ، 12 "

امرأة وعصافير" ، 13 " قبل السقوط " ، 14 " ليلة هند الأخيرة " ، 16 " البنات .. البنات "؛

ثم المحور أو الموضوع السياسي الذي أقام عليه أربع قصص هي : " أزمة مخرج "/ 4 ، " رباب " /5 ، " زيارة " /7 ، " عرض موجز لموت زرقاء اليمامة " /9 ؛

ثم المحور أو الموضوع الاجتماعي الذي طرحه في قصص : "الدار بوضع اليد " /1 ، "ما أجملها"/2 ، "وجه أخر للفجيعة" /8 ، " بعد فوات الوقت " /15 ؛

وتلقانا من بعد قصتان في المجموعة هما " المتني " /11 ، و"ليلة هند الأخيرة" 14 والتي سبقت في الاتجاه العاطفي الوجداني حيث يتنازعها موضوعان أو محوران هما "المحور الفني أو الفكري لتكريسها فكرة " الوجودية " التي سادت في هذه المرحلة واستقطبت قطاعا كبيرا من أدعياء الفكر والثقافة والتقدمية الضالة على نحو ما سيأتي!

ونودّ أن نضع خلاصات لهذه القصص التي اشتملت عليها المجموعة ليستعين بها القراء على تعرف أبعادها الفكرية والموضوعية التي طرحها القاص فيها وإن كانت لا تغني مطلقا عن قراءتها كاملة مرة ومرات ليتذوقوا جمالياتها وتقنياتها الغزيرة التي انتشرت فيها —

وإنما هذه الخلاصات السريعة توطئة لربطها بمظاهر ومجالات الدراسة الفنية الآتية لها .

فأما المحور العاطفي الوجداني، فقد جاءت القصة الأولى منـــه بعنوان "نوال تقرأ الحقول" ـــ "فصل من التغريبة اليمانية"؛ وهـــي تحمل الرقم 3 من ترقيم أقاصيص المجموعة ؛ وترصد طرفا من مأساة المرأة اليمنية عموما التي فجرها اغتراب الرجال للعمل في بلاد بعيدة وترك زوجاتهم يعانين الجوع الجنسي المدمر وما ينشر في نفوســـهن من تشوق دائم وملتهب.. فقد كانت " نوال " بطلة القصة تقضي الأيام والليالي الطوال ساهرة تتشوق وتتلهف على عـــودة الـــزوج الذي تطول غيبته عنها ولا يأتي إليها إلا ليلة أو ليلتين كل شهر .. وهي فارة لا تحقق لها القدر المطلـــوب مـــن الارتـــواء العـــاطفي والاستقرار النفسي ، فضلا عن إمكانية الإنجاب الذي تتـــوق إليـــه نفسها وتتلهف عليه ليساهم في تحقيق الاستقرار النفسي لها قبل أن تمضي فترة الخصوبة مخلفة وراءها العقم والجفاف ..

ويرصد القاص هذه القضية ذاتها في قصة أخرى تحمل الـــرقم (10) تحت عنوان "ظمأ"؛ ولسنا ندري لماذا لم يتبعها بعبارة "فصل آخر من التغريبة اليمانية" وهي كذلك .. وإذا كانت القصة الأولى أثارت البطلةَ فيها رؤيتُها زوجي حمام في حالة ظاهرة من حـــالات الوئام والحب المثيرة وهما يتناغيان ويتقافزان ويسود هديلهما قـــدر

هائل من الحب والنشوة، فقد أثارت البطلة الأخـــرى في "ظمــأ" رؤيتها ما تنعم به زوجة المدرس المصرية من حب وسعادة وارتـــواء عاطفي حرمت منه الزوجة اليمنية بسبب غياب زوجها عنها للعمل في السعودية لفترات طويلة جدا قد تبلغ عامين أو أكثر، مع أنه كان يمكنه أن يعمل في صنعاء أو غيرها من مدن اليمن ليعود إليها كلما احتاجت إليه وتشوقت .. وأن كان هذا الأمر لم يرق لنوال الآنفة الذكر والتي لم تكتف بليلة أو ليلتين كل شهر .. على أن الذي أراد القاص الإفصاح عنه في هذه القصة والسابقة لها التأكيد على أن هذه المأساة الاجتماعية العاطفية ليست مأساة هاتين المرأتين وحدهما، بل هي مأساة ثلاثة أرباع نساء القرية اليمنية التي يتـــركهن رجـــالهن للعمل في السعودية وتطول غيبتهم عنهن ولا يأتونهن إلا بعد وقت طويل فيحرمن كما يحرمون من الائتناس بالزوج والولد .. ويتركون نساءهم "كالأرض البور تنظر مواسم الحرث" التي قد تطول ، وقد لا تجيء !

ومع ما تبذله البطلة هنا من جهود مضنية لمقاومة وســـاوس الشيطان ، فإنها لا تخفي شوقها الجارف للزوج الغائب الذي طـــال غيابه جدا محدثا في نفسها قدرا ضخما من الشروخ المدمرة الـــتي لم تقو على كتمانها أو التحكم فيها والسيطرة عليها ، ولا تملك إلا أن

تجأر في حسرة حارقة رافضة متمردة دون أن تخفي البديل المناسب الذي يحقق لها الاستقرار النفسي المنشود فتقول :

" أيها الزوج البعيد ؛ لأنت رجل سيّئ الطـالع ، لم تـنعم بدفء العلاقة الزوجية كما ينبغي ؛ وأنا كذلك ؛ لم ننعم أنا وأنت بعش الزوجية السعيد ، و لم يشبع أحدنا من الآخر ؛ جميل يشـتاق إليك ويسأل دائما : أين أبي ؟ لماذا تبتعد عنا ؟ كان يمكنـك أن تعمل في مطعم في " الأحد أو في ذمار وتبيت معنا كل يـوم ، أو تجيء كل أسبوع لتقضي معنا يومين إذا عملت في صنعاء ! أكان لا بد أن تسافر ؟ أتريدنا مرة أخرى .. أم لـن تعـود ؟ كلمـا أرى المصري أتذكرك وأشتاق إليك ؟ هل ستعود ؟ واثقة من عودتك ؛ فمتى ستعود إذن ؟!".

وواضح أن القاص هنا إنما يركز على الآثـار السـيئة الـتي تفجرها الغربة في هذه المرأة اليمنية ومن ورائها كل النساء في كـل مكان ليكون ذلك دافعا للرجال ليعودوا إلى أزواجهـم قبـل أن يبتلعهم نهر الغربة المجنون !

ثم جاءت قصة "حزن لا يموت" /6 ــ وأفضل هنا كلمـة "حب" بدلا من "حزن" لدلالات القصة وأحداثها الـتي رصـدها القاص ــ لأنها تحكي قصة حب جارف نشأ بين البطل والبطلـة "نبوية" إبان فترة الدراسة الجامعية ، وربما الفترة السابقة لها ــ وهي

فترة كما يلاحظ — تموج بهذه العلاقات التي سرعان مـا تنـدثر وتزول بعد الانغمار في مشاغل الحياة ومواجهة الواقع بكل تكاليفه ومشكلاته لتبدأ مرحلة جديدة مختلفة وراءها مرحلة العشق أو الحب الذي يمكن أن نطلق عليه "حب الطلبة" وما يسوده مـن رعونـة وأحلام سرعان من تتبخر .. يؤكد هذا كل أو أغلب القصص التي ترصد هذه المرحلة أو العلاقة .. كما أننا لا نكاد نجد آثارا للحزن الكاوي الذي كان القاص — كما يوحي العنوان — يعاني منه من جراء هذه القطيعة أو التحول في حياة الحبيبة "نبوية"، فضلا عن أن يكون شيء من ذلك تعاني منه نبوية أو تحسه وتطرحـه أحـداث القصة .. ما علينا ؛ المهم أن هذه القصة تحكي قصة الحـب الـتي دارت بين البطل و" نبوية " التي غادرت القرية — وكـأن البطـل يحملها المسؤولية عن نتيجة هذا الحب الضائع — لتستقر مع والدها التاجر الكبير في الإسكندرية لتضيع إلى الأبد قبل أن تحـاول جمـع أشلاء "أوزوريس التي بعثرها أخوه " ست " في كل البلاد لتعيـد إليها الحياة من جديد كما فعلت جدتها القديمة "إيزيس" ذات يوم ! بل إنها تركته قبل أن تسمع قصائده المرهقة بالحنين والشوق والحب واللهفة للقاء الذي كان يحلم به!

هكذا ضاع الحب الذي حمله البطل بين جوانحه لنبوية لسنوات طويلة أيام الدراسة .. وإن ظل يتشوق إليها ويحلم بعودتها إليه التي لا تجيء !

وتمضي الأيام وتتقاطر في قافلة الزمان مكونة سبعة عشر عاما ليتحقق له اللقاء بالحبيبة الضائعة عبر صدفة عجيبة تجسد قول الشاعر العذري القديم :

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما .:. يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

حيث التقاها مصادفة على شاطئ بحر الدمام عندما كان يقضي إجازة عيد الفطر طلبا للاستجمام على غير عادته بسبب انشغاله الدائم بقراءة الروايات ومشاهدة بعض برامج الفضائيات أو كتابة بعض سطور يحسبها من الشعر .. وراح يستدعي أو يلم شتات هذا الحب الضائع وما واكبه من أحداث سياسية بائسة ومخجلة منذ أن كان في الرابعة عشرة من عمره منحيا باللائمة على والدها التاجر الكبير الذي دفعه طموحه إلى مغادرة القرية الصغيرة إلى المنصورة فدمياط فالإسكندرية التي استقر فيها متجاهلا عن غير قصد هذه القلوب الغضة التي كانت تخطو أولى خطواتها على درب الحب البريء! على أن اللافت للنظر حرص القاص هنا على رسم "نبوية" في صورة مثقلة بالألم والحزن الذي لا نستطيع أن نفهم

دوافعه وظروفه ؛ ويتساءل عن ذلك : " لماذا تحوطك الغمامات وأنت — في جلستك البهيجة — محاصرة بأحاديث العابرات عن حزنك وعن جمالك البهيج الذي يدير الرؤوس " ! على ما في ذلك من تناقض ظاهر ، وكأنه يريد أن يقرر ويؤكد ما يملأ نفسها من حزن ربما لفراقه القديم وحبها له الذي ما يزال يملأ نفسها ؛ وكأنه ما يزال يرصدها من زاوية نظر الصبي المراهق ابن الرابعة عشرة ؛ وتأمل خطابه للشعر ودعوته إياه لنقل شوقه إليها وتأكيد استمرار حبه لها وخلود ذلك الحب في قوله : " أيها الشعر ، يا جناح الطائر البحري المسافر إلى البعيد .. خذ شوقي إلى سريرها الغافي في مروج النور ، ورُشَّ أطيافا من نور وصلاة على هدبها الغافي .. وتعال صف لي ضجعتها الأخيرة " !!

وعلى الرغم من انقضاء كل تلك السنين على هذا الحب والفراق ، فما يزال البطل يعيش على ذكراها وحبها ، ويرفض كل دعوة لتناسيها وتأكيدهم له بأنها " ليست آخر الدنيا"!

ثم نلتقي القاص في القصة الثانية عشرة "امرأة وعصافير" يطرح مأساة امرأة أخرى حائرة تتردد بين زوجين يطلقها أحدهما لتتزوج الآخر ؛ فقد طلقها زوجها الأول عندما قرر السفر إلى الجزائر ليقيم فيها عشرة أعوام فتزوجت خلالها من الآخر الذي طلقها عند عودة الزوج الأول ليتزوجها من جديد ولتبدأ مرحلة الشك الذي سيطر

على نفسه في إخلاصها وحقيقة حبها له وصدق عاطفتـــها تجاهـــه خصوصا بعد أن لمس حزنها الظاهر على طليقها بعد إصابته بجلطـــة دفعته إلى طلاقها بناء على رغبتها برغم استمرار زواجهمـــا ســـبعة أعوام كاملة لأنها أشعرته بأنها ما تزال تحب زوجها الأول للأســـف كما تقول ! ومع ذلك ظلت تراوده فكرة طلاقهـــا أو قتلـــها ـــ ذبحها، والذي أجله إلى حين عودته من بيروت التي كان يقيم فيها معرضا تشكيليا .. وكان هذا هو الجزء الأول من الحكاية! أما الجزء الثاني فقد عرض فيه علاقة البطلة الحائرة بالزوج الآخر وظـــروف زواجه منها وأسفه الشديد على طلاقها لتعود من جديد إلى الزوج الأول مدفوعا بخوفه عليها أن يقتلها في نوبة جنـــون! وفي القســـم الثالث من الحكاية عرض لشخصية أخرى من شخوصها وهـــي " سعاد " أخت البطلة " الزوجة الحائرة مريم " ساردا طرفا من سيرتها الشخصية .. ثم أفرد القسم الرابع والأخير لتحديد بعـــض ملامـــح سيرة " مريم " ذاتها وظروف زواجها المتكرر وطلاقها من" أحمـــد " وسعيد " .. أف! المشكلة غاية في التعقيد يا دكتور حســـين ـــ الله يعينك !

ثم تأتي " قبل السقوط : (13) لتحكي قصة امرأة تتخـــوف السقوط بسبب غياب زوجها وسوء تقديره لعواقب الأمور وغبائه وقلة فطانته عندما أصرّ على إقامة أخيه الطالب الجامعي في شقته مع

زوجته! وهكذا تجسدت مأساة هذه المرأة التي أخذت تعاين سقوطها المحتوم بين لحظة وأخرى منكرة على زوجها هذا التصرف الغبي الأحمق الذي لا يقدر العواقب مشيرة إلى الحل الأنسب في مثل هذه الحالة، حيث كان يمكنه أن يساعد أخاه ببضعة جنيهات تمكنه من السكنى بالمدينة الجامعية مع أقرانه الطلبة، ويزيل دواعي السقوط الذي يوشك أن تتردى فيه زوجته ويقضي على أسبابه ..

وواضح أن القاص الفاضل لمس مشكلة اجتماعية بالغة الخطورة مكرسا حلا ناجعا لها يجدر بالآخرين اتباعه وتطبيقه لتتحقق لهم سلامة العلاقات الاجتماعية في إطار مهم ..

وفي القصة الرابعة عشرة " ليلة هند الأخيرة " يطرح قاصنا الفاضل مأساة امرأة أخرى سقطت ثم قررت التوبة والأوبة إلى الله والخلاص من المستنقع الآسن الذي تردت فيه على طول سنواتها الماضية .. وأخذت تمارس بعض العادات الإسلامية وتؤدي جزءا من العبادات استجابة لتعنيف أختها لها ولومها على سلوكها الشائن الساقط .. وطلبت من عشيقها " ممدوح " الذي كانت تعيش معه بالحرام أن يتزوجها زواجا شرعيا صحيحا يمكنها من الإنجاب والظهور أمام الآخرين في المجتمع ويخلصها من حياة السقوط والرذيلة التي تمارسها ، ويحقق لها التوبة التي تتوق وتتحرق إليها نفسها .. ولكن العشيق يرفض هذه الرغبة وينكر عليها هذا التحول

الأحمق عن "المبدأ الوجودي" الذي آمنا به والتزماه سلوكا وفكـــرا طوال تلك السنين ومارساه على خطى "ســـارتر" و"ســـيمون دو بوفوار" منذ أن تلقياه عليه إبان دراســـتهما في " الســـوربون " .. وأيقنت أن البقاء مع هذا الوجودي الفاسق عقيم ولن يحقـــق لهـــا رغبتها في التطهر والتوبة ، فقررت أن تمارس أسلوبا آخـــر تجربـــه عسى أن يحسم المشكلة ويحقق لها الراحة النفسية التي تتحرق إليهـــا " أنت يجب أن تموت بيدي! هذه هي العدالة المطلقـــة ! ... " وفي الصباح انسرب خط من الدماء من تحت الباب؛ وعلى باب الشقة كانت أصابع يد هند الخمس المضمخة بالدم ما تزال معلقة! وعندما فاحت بعد يومين رائحة ممدوح النتنة، اتجهت هند إلى نقطة الشرطة في قريتها لتعترف بكل شيء!".

ثم كانت القصة الأخيرة (16) التي تحمل عنوان " البنات .. البنات " لتحكي ماساة مكرورة قد تنتمي إلى مرحلة الحب الجامعي وما يمكن أن تنتهي إليه من آلام يعاني منها قطاع ضخم، أو شريحة واسعة من المجتمع المصري من الشباب الذين يخوضون تجارب الحب، حتى إذا خاضوا تجارب البحث عن الاستقرار وتأسيس عش الزوجية ــ والبحث عن " عش الزوجية " خير ومعقول وأنسب وأحـــرى بالتحقيق من البحث عن " شقة أو بيت كبير" ! ومع ذلـــك فقـــد حالت دون ذلك حوائل تتمثل في مشاق الحياة والعجز عن تـــوفير

المطالب الأساسية لهذه المرحلة التالية لمرحلة الحب .. وهكذا يتحول الزواج بالنسبة لهذا القطاع الضخم من المجتمع على الورق فقط، أو بعبارة أخرى "زواج مع وقف التنفيذ" إلى أجل غير مسمى لا يعلم مداه إلا الله سبحانه! وعندئذ يجد الحبيبان أنفسهما أمـــام قـــرار لا حيدة عنه ولا بديل له وهو "التصالح مع الواقع والبعد عن أوهـــام الحب، وفك الارتباط المبرم بينهما سواء أكان هذا القرار يمارس من قِبَل الشاب أو من قبل الفتاة !".

وهكذا جاءت حكاية الفتاة "سعاد" ـــ بطلة القصة الـــتي لم تُطق صبرا على هذا الزواج الموقوف، وآثرت أن تضع بيدها الحـــل الحاسم له عندما خلعت " ذبلة الخطوبة" ووضـــعتها في حقيبتـــها وراحت تتمتم وهي تنظر إلى الفرس الذي كان عرابي يركبه قائلـــة لحبيبها:

" ليتك تجد مثله لتركبه ليلة زفافك على عروس غيري!".

وقفزت في خفة تقلد "سعاد" الأخرى وتغني في أنين مكبوت: "البنات .. البنات !" ولم يملك شاعتذ غير الدموع الغزيـــرة الـــتي أخذت تسيل من عينيه !!

أما المحور أو الموضوع الثاني فهو "السياسي" الذي اســـتقطب أربع قصص لم يبخل عليها القاص بسرد الكثير مـــن الإشـــارات المتنوعة .. كما عالج فيها أطرافا واسعة من الواقع السياسي المحطوم

الذي خيم على المرحلة الأخيرة التي تلت نكبة حزيران ـــ يونيو 67 .. وقد أخلى القاص المأزوم بمصاب أمته وفجيعتها مكانا فسيحا لهذه المأساة المدمرة وما تمخضت عنه في هذه المجموعة .. وكانت بداية الشوط في القصة الرابعة "أزمة مخرج"؛ فقد رصدت هذه القصة موقف مخرج مسرحي في لحظة الانفلات من ربقة الانسياق في تيار السلطة الحاكمة والالتزام بمبادئها وقيمها، ومحاولة التخلص من كل ذلك عبر موقف رافض متمرد آمن به تحت ضغط الانهزام السياسي والإحساس المر بالهوان الناجم عن المأساة والذي فجره تهافت السلطة وهوانها وانحطاطها بكل ما جرّ من خيبة وعار وخسران كانت بدايته نكبة 67 .. وتبتدئ القصة مع بطليها الرئيسين "فاروق منير" ـــ أحد الشعراء المشاهير في هذه المرحلة ـــ مدير إدارة النصوص في المسرح القومي والذي قدم له المسرح القومي ثلاث مسرحيات شعرية، وصار له عمود يومي في واحدة من أكبر الصحف انتشارا "بعد أن كان من المغضوب عليهم لكتابته الأشعار المتمردة الرافضة للهزيمة .. والبطل "سامي الإمام" الذي تعلم الإخراج في موسكو على يد أشهر المخرجين، ثم احترف الإخراج .. وعقب التوطئة السابقة أو التمهيد الذي تطوع بتقديم تعريف مقتضب للشخصيتين الرئيستين في القصة، اندفع القاص يخبرنا بلسان المخرج بما كان يعاني منه والذي عبر عنه بعبارة "أزمة

موقف"، الذي نتج عما اجتاحه من أحاسيس متباينة في حالة من حالات المراجعة النفسية والواقعية لقناعاته السياسية والمبدئية وما كان يقدمه من مسرحيات تدغدغ العواطف " .. كما يخبرنا برغبة صديقه الشاعر المسرحي في إخراج مسرحية شعرية له على مسرح الدولة طرح فيها قضية صراع الطبقات من خلال شخصية رابعة العدوية المتصوفة المشهورة وهي تنتقد "القطط السمان والوجهاء الذين يدعون التدين ويمسكون السبح في أيديهم لتزداد مكتسباقم وتروج تجارقم وتتضتعف استثمارالقم ".. بيد أن المخرج لم يستطع أن يهضم هذه الفكرة أو يتقبلها فضلا عن التعايش معها ليتمكن من إخراجها لما وجد في هذه الشخصية من تناقض وتضاد مع الموضوع المطروح إذ كيف يمكن أن تنتقد رابعة المتصوفة طبقة "القطط السمان" في هذا المجتمع الثوري الجديد، وكيف يمكن أن تُطرح هذه القضية على مسرح الدولة؟ ويوجد له صديقه الشاعر المسرحي أكثر من مبرر يسوغ عرض هذا النص المسرحي على مسرح الدولة حتى لو كان مصادما للتيار الثوري السائد ولسياسة الدولة منها: أنه هو الذي يختار النصوص التي تعرض على هذا المسرح، كما أنه من خلال "هامش الحرية المتاح" يمكنه أن يمرر مثل هذه النصوص وطرح ما لا يستطيع المسرح التجاري طرحه، فضلا عما يمتاز به المسرح من رمزية تبرر ذلك .. ولم تستطع كل هذه التبريرات إقناع المخرج

لإخراج هذه المسرحية محتجا إضافة إلى ما سبق بأن هذه الشخصية التي تطرحها المسرحية والموضوع الذي تعالجه ليسا من الشخصيات أو الموضوعات المثيرة التي تجد لها جمهورا مناسبا .. وهنا ينصحه بتناول موضوعات أخرى تناقض قضايا حساسة في المجتمع وتلمس جوانب مهمة من حياة الناس من مثل "قضية الحرية، أو انفراد أمريكا بحكم العالم منذ زوال الاتحاد السوفييتي، أو العولمة، أو صراع الحضارات .. أو غيرها من الموضوعات من خلال مسرحيات تشتبك مع الواقع لا من خلال أقنعة"! وهنا يحتج الشاعر المسرحي بتجربة الشاعر صلاح عبد الصبور الذي قدم مسرحية تناولت شخصية صوفية مشهورة هو "الحلاج" عالج فيها قضايا عصرية تلتحم بالمجتمع الثوري المعاصر .. ويحتدم الجدل بين الصديقين ليتهم الشاعر المسرحي صديقه المخرج بالخوف من الأصوليين أصحاب السلاسل والجنازير .. ويصر المخرج على الاعتذار عن إخراج هذه المسرحية؛ وهنا يكشف المخرج عما تنطوي عليه نفسه من إيمان برغم دراسته الإخراج في أهم أكاديميات الاتحاد السوفييتي وإيمانه القديم بأفكار الشيوعية ومبادئها "فما زالت فيّ بقية من تلك الأرض الطينية من القرية التي ما زال أبي يخطو فوق ثراها، ويصوم رمضان والستة البيض، ويصلي في أعماق الليل، ويصلي الفجر جماعة، ويحج ويعتمر"! كما أن أمه ما زالت مؤمنة بالله ورسوله!

وهكذا جسدت القصة هموم واهتمامات هاتين الشخصيتين وما تفاعلا معه من أحداث تدخلت تدخلا حاسما في تغيير اهتماماتهما وتوجيه أفكارهما ومواقفهما: الشاعر المسرحي الذي كان يمتاز بالرفض والتمرد في البداية، ثم تحول ليصبح أداة من أدوات الدولة، يحرص على المحافظة على مكتسباته، وتهمه الشهرة والكتابة، والمخرج المسرحي الذي كان يشكل أداة من أدوات الدولة ويعتنق مبادئها وأفكارها الثورية حتى إنها أرسلته في بعثة لدراسة الإخراج المسرحي في أشهر أكاديميات الاتحاد السوفييتي .. ثم اجتاحته رياح التغيير والرفض والتمرد على أعراف الحكم الثوري، وأسلس قياده لأعراف الدين وأصوله المتجذرة في أعماق نفسه ..

وفي القصة الخامسة "رباب" يطرح القاص الفاضل مبدأ التحول السياسي الذي يمارسه البطل ودوافع ذلك التحول .. ويستطيع القارئ أن يلاحظ تحولا أساسيا في موقف الشخصيتين: "رباب / عبلة ، وعبد الستار / عنترة "؛ حيث بدأ الموقف ينجلي أو يتحول من خلال التمرد على الواقع الذي ألفته رباب / عبلة لا يناسبها عندما قالت لصاحبها عبد الستار: رباب لا تناسب مساكن علب الصفيح"! ويبدو أن هذه العبارة كانت تشي بشيء كثير من الرفض والتمرد والنقد لأجهزة الدولة، وإن لم يفصح القاص ولا

عبد الستار عن هذا الأمر الذي فهمناه من جريمة قتل رباب تحت عجلات سيارة مجنونة إن لم تكن الصدفة وحدها وراء هذه المأساة .. ومهما يكن فقد انتهت حياة رباب ووضعت تلك السيارة حدا لطموحاتها، وخلفت عبد الستار / عنترة وحيدا يصارع الواقع محاولا التمرد عليه .. وقد تمخض عن غياب رباب موقفان متشابهان إلى حد ما بالنسبة لتأثيره على شخصية البطل: أحدهما موقف الأم التي كانت تنتظر اكتمال فرحتها بزواج ابنها من الحبيبة المنتظرة التي دمرتها السيارة المجنونة .. ثم ما أصاب هذا الموقف من تغير هائل بعد موت الحبيبة؛ فقد هالها ما آلت إليه حال ابنها الذي لم يستطع نسيان الحبيبة التي غيبها الموت، وظل يتواصل معها نفسيا وشعوريا مما أزعج الأم وأقلقها فانقلب شعور الحب القديم الذي كانت تكنه لرباب إلى ضرب من الكراهية؛ وهذا ما طفح على لسان عبد الستار وهو يتساءل: "هل كانت أمك تحبها أم تكرهها؟ "والجواب المباشر أنها كانت تحبها قبل مصرعها، ثم صارت تكرهها بعد ذلك لما وجدت من حال ابنها واستمرار حبه لها وتعلقه بها وتغلغلها في تلافيف نفسه وعدم ظهور بوادر لنسيانها والتحول عنها إلى أخرى مما ينذر بتحطّم آمال الأم في فرحتها بابنها .. وهذا ما جعلها تصرخ في وجهه عندما رأته يقرأ في الكراسة التي كان يكتب فيها خواطره ظنا منها أنه يقرأ شعر رباب: هل ما زلت تقرأ شعر رباب؟

ومع أنها صدقته في اعترافه بأنه كان يقرأ من شعره هو لأن رباب لم تكن تكتب الشعر، إلا أنها لم تخف موقفها الرافض لتلك العلاقة الغريبة المنعقدة بينه وبينها خاة بعد موتها، وفاهت بعبارة تطفح لوما وتبكيتا له على ذلك: كأنه لا يكتب إلا لها!".

أما الموقف الآخر فهو موقف السلطة المترصدة له والرافضة لما آل إليه بعد مصرع رباب حيث أخذ يمارس منهج الرفض والتمرد، ويعلن حرصه الدائم على تعرية السلطة وكشف مساوئها والتنبيه على مفاسدها غير عابئ بما يمكن أن يترل به من عقاب أو عذاب لا يطاق حتى لو بلغ حد التصفية الجسدية .. ومع أن البدايات المبكرة أو الأولى للقصة إلى حين مصرع رباب لا توحي بهذا التغيّر ولا تشي بهذا التحول الجذري في موقف البطل خصوصا وأنه لم يكشف عن شيء من الأسباب التي يمكن أن توحي بذلك أي إيحاء — إذا ما تجاوزنا اتهام السيارة بجريمة قتل رباب وتصفيتها برغم سكوت البطل عن كشف شيء من الدوافع وراء هذه الجريمة — مما يجعلنا معاشر القراء والمتلقين نلوذ بالصمت ونتوقع احتمالات كثيرة ممكنة .. المهم، ابتدأت مرحلة الرفض والتمرد على السلطة في موقف البطل منذ أن أفاق من غيبوبة الصدمة التي أصابته من السيارة وعلم بموت رباب، أو قل تغييبها وتصفيتها جسديا حتى لو كان ذلك عن طريق

الاختفاء وراء الحلم حيث يقول: "رأيت فيما يرى النائم" وما تبـع ذلك من تحقيق النيابة معه ... إلخ

وهكذا بدأ التحول في مسار القصة أو قل في موقف البطل مع الخطوات الأولى للتحقيق معه حول نص كتبه عنها مؤكدا أهميته لما يدعو إليه ويحققه من تغيير جذري في سلم السلطة من خلال الدور الذي يمكن أن تلعبه القرية النائية المغيبة والأولاد العراة الحفاة الذين كان يعوّل عليهم كثيرا في هذه الأمور باعتبارهم "اللاعـب الأول الذي يملك كل أوراق اللعبة في منطقة المساجلة"!

وتتواصل مسيرة الحلم معلنا رفضه اتهامات السلطة لرباب بأنها تهاجم الجميع في أغان ثورية بذيئة مؤكدا أنها إنما تغني للحياة وللمستقبل، ولم يسمعها تهاجم أحدا " .. بل إنه ينفي أن يكون مصرعها مقصودا لانتفاء الدوافع لذلك "حيث يحبها الجميع حتى الأشجار والعصافير"! وواضح أن البطل هنا يحاول أن يطمس الحقيقة ويغالط الواقع ويتناسى موقف السلطة منها ورفضها أغانيها الثورية واتهامها بالتمرد والرفض للسلطة .. وكل ذلك من أوضح الدوافع والمبررات لتصفيتها جسديا وتغييبها .. وكأن البطل يريد أن يتسامى على دوافع السلطة وجبروتها وقدرتها على تصفية أعدائها وخصومها مؤكدا عجزها عن كل ذلك ..

ويتواصل حب البطل للجميلة المغيبة مكرسا آثارها البالغة في الجميع لأنها تنطق عن مكنونات ضمائرهم ، وتجسد آمالهم وأحلامهم .. كذلك يتواصل حبه لها من خلال رفض مختلف الشائعات التي أخذت تلاحقها حتى بعد تغييبها، كما يجسد ذلك رفضه ادعاءات أخته "سهى" من أنها كانت تُعرَض في سوق الرقيق!!

هكذا صارت "رباب" سيدة نصوص البطل القاص الشاعر مكررا رفضه لادعاءات الآخرين موتها غيلة، واتهاماتهم لها مؤكدا عودتها الوشيكة، وبزوغ فجرها الآتي لتحقق أحلامه وأمنياته بالتغيير إلى الأفضل!

ثم كانت قصته التاسعة "عرض موجز لموت زرقاء اليمامة" التي جاءت لتطرح أمشاجا من الرؤية السياسية المأزومة للقاص / البطل من خلال عرض أطراف من سيرة "مدرس التاريخ" الذي ارتبط به البطل الراوي من خلال تلقيه مادة التاريخ على يديه .. وقد توثقت تلك الصلة بعد توثق صلته بابنته التي كانت تزامله في المدرسة وتشاركه في تلقي دروس التاريخ على يد أبيها!

ومنذ الافتتاحية أخذ القاص الراوي يسرد أطرافا من سيرة ذلك الأستاذ مكرسا بعض شياته المميزة التي تجسد الأصالة

والشموخ والخلود في الأمة المصرية: "رأى اليهود وهم يستحمون في القناة فلم يأبه! وقال: سنراهم قريبا يندحرون!

ورأى الأريكة المريحة وهي تتهاوى تحت مقعدة السلطان الكهل، فلم يحفل، وقال: مصر ولّادة! ورأى من يسرقون في بداية عهد الانفتاح السعيد ... فقال: عابرون ! لكن علينا أن نتصدى لهم، ونقف في وجه شرههم"!

ومما يلاحظ أن القاص الراوي يجعل يوم وفاة "حياة" ابنة الأستاذ يصادف يوم " ثورة التصحيح المباركة " التي قادها السادات في 15 مايو 71 .. على أن حرص القاص الراوي على الإشراك بين هاتين المناسبتين: موت حياة وثورة التصحيح يشعر برأيه الساخر من هذه الثورة التصحيحية حتى لو وصفها بالمباركة وهو ما أشيع عنها إبان إعلانها! ومهما يكن فقد كرس الأستاذ مأساته المفجعة بغياب ابنته حياة في أكثر من موقف في القصة من مثل تساؤله الذي كان يردده دائما أمامه: "لا أدري لِمَ لَمْ تعط الحياة فرصتها لحياة ؟ هل لأن القبح والدمامة صارت لهما الغلبة في الحياة؟ أم أن في اختفائها إشارة لاختفاء العقل والمنطق من حياتنا؟!"

ثم لم يلبث القاص الراوي أن أمسك بدفة الحديث عن حياة " زرقاء اليمامة " مكرسا طرفا من خصائصها المميزة وإن أخذ عليها " إغفالها لمقاطع الهزيمة التي يمتلئ بها كتاب راهننا " !

وربما كان يشفع لها ذلك " أنها كانت تبصر النصر قادمـــا، وتبصر بعده أثرياء الحرب "القطط السمان" بعد الانفتاح الســعيد، وما نجم عنه من اختفاء الطبقة الوسطى بعد مجيء أثريـــاء الحـــرب الذين لا يملكون فيما أو إرادة لنعضة البلد"!

وعلى هذه الشاكلة تتداخل رؤى القصة وتختلط فيها السياسة بالحب الذي كان ينطوي عليه صدره و لم يقو على البوح به لما وجد من صرامة أبيها " الأستاذ"، حتى إنه ظل يؤجل إعلان هذه العلاقة النظيفة بينه وبين "حياة" إلى ما بعد التخرج توطئة للخطبة والزواج، و لم يقل لها الكلمة التي كانت تشعر بها ، وتعرفها " أحبك"!

ويستحيل حبه لها وهو يتأمل صورها ليأخذ شكلا جديدا تمثل في عشقه أدب المنفلوطي ومحمد عبد الحليم عبد الله بعد أن كان لا يعبأ بهما خلافا للحبيبة التي كانت تعشق أدبهما بجنون !

كذلك كانت قصته السابعة "زيارة" صدى للسقوط السياسي الذي تردت فيه البطلة " سهى / سناء علي خليل " حيث رغبت في زيارة زميل قديم تعرفت عليه في سنوات النضال قبل هزيمة يونيـــو 67 في معهد الشباب الاشتراكي بحلوان في أواخر الستينات .. وفي هذا اللقاء الأخير أو "الزيارة" طرحت البطلة طرفا من همومها الـــتي صنعتها السياسة الضالة المضلة والتي انعكست آثارها السوداء علـــى حياتها على نحو ما تقول في التعريف بهويتها :

"ـــ الاسم : سهى؛ غيرته من سناء علي خليل إلى ســـها ؛ أليس ذلك أفضل يا دكتور ؟!

ـــ العمر : ألف عام في التيه وممارسة الخطيئة بلا لذة وكأني أعذب نفسي !

وقد أضاع الانغمار في تيار السياسة الضالة عليهـــا فرصـــة الاستقرار النفسي والاجتماعي عندما رفضت عرض صديقها القديم الذي تزوره الآن الزواج معتذرة بقولها : " إنني تزوجت القضـــية! قضايا مصر وإفريقيا ودول العالم الثالث " ! و لم تملك الآن غير الندم ـــ ولات ساعة مندم ! "آية لوثة أصابت عقلي يـــا صـــفوت؟! ثم أخذت تسرد طرفا من سيرتها الخاصة مع " صفوت نعمـــان " ـــــ الآخر الذي كانت تربطها به علاقة قذرة تمردت على تحقيق رغبتها في الزواج الشرعي منه .. وفي حديثها مع صفوت عيسى الســـابق تكشف عن طرف من الرؤى السياسية التي كانت تموج بها مرحلة الستينات ما قبل النكبة عندما كان يحلم بالسفر إلى أمريكا للدراسة و لم يتحقق له ذلك واضطرّ للسفر إلى الاتحاد السوفييتي مبررا ذلـــك بموقف أمريكا الداعم لإسرائيل على اغتصاب فلسطين وضربها للبلد كما قالوا له في إدارة البعثات وقتها .. بـــل لا يخفـــي اتجاهـــه إلى الاشتراكية آنذاك قبل أن تتكشف له حقيقتها وأنها "كذبة كـــبرى" .. بل يكشف لها سقوطهم وسقوط الاتحاد الســـوفييتي نفســـه في

الفخاخ التي نصبت لهم بلا رحمة! ثم يخبرها عن تغير اتجاهه الآن حيث أصبح متشيّعا للتيار الإسلامي وإن لم ينضم إلى حزب أو جماعة .. ويقرر رأيه في الإسلام وأنه الحل الصحيح لكافة القضايا والمشكلات للبشر جميعا وليس للمسلمين وحدهم .. ويكرّ مرة أخرى ملخصا خطوط حياته منذ "النشأة في قلاع الإقطاع بأنشاص بمحافظة الشرقية حيث أرض الملك .. وأبي وأعمامي أجراء في أرضه .. إلى الحلم بإنجازات الثورة التي وعدنا بها جمال عبد الناصر .. وغناها عبد الحليم حافظ وصلاح جاهين في "بستان الاشتراكية" .. ثم التفوق .. ومنطمة الشباب ومعهد حلوان الاشتراكي .. وذهابي إلى روسيا لاستكمال دراساتي ، والتحول هناك عن "طب المجتمع" إلى " الطب النفسي"؛ لمحاولة التخفيف عن أوجاع الناس الذين قتلتهم هزيمة يونيو 67" !

وفي هذه القصة يحاول الطبيب تذكير سها ببعض الذكريات التي ارتبطت بهذا الوضع السياسي المأزوم فيقول: "هل ما زلت تذكرين اللقاء الأول في معهد الشباب الاشتراكي بحلوان في أواخر الستينات في تلك الفترة السوداء التي أعقبت هزيمة يونيو 67 ؟

ثم التضليل الإعلامي والسياسي الذي كانت تمارسه السلطة الحاكمة: "لماذا أذهب إلى أمريكا وهي التي تدعم إسرائيل على اغتصاب فلسطين، وهي التي ضربت بلدي؟ بل كانت هزيمتنا

بسبب دعمها لإسرائيل .. هكذا قالوا لي في إدارة البعثات وقتــها! ... اتجهت إل الاشتراكية ، ثم تبين لي فيما بعد ألها فرية كبرى" ... سقطنا جميعا في الفخاخ التي كانت منصوبة لنا بلا رحمــة، نحــن والاتحاد السوفييتي!".

وعلى هذا النحو حنت السياسة الضالة بصورة بشعة علــى البطلة " سها/سناء" ولم تترك لها فرصة نسيان مأساتها التي ما تــزال تطاردها وتنكأ جراحها، وبصور أخرى متنوعة علــى كــل مــن صفوت عيسى وصفوت نعمان"حتى لو ظل الآخر يكتم ذلــك ولا يعلنه وكأنه رضي به واقتنع به!

وتلقانا في القصة الرابعة عشرة "ليلة هند الأخيرة" أمشاج من الآثار السياسية القاتمة التي ارتبطت بشخصيتيها الرئيستين ومنها أن "علاقتهما كانت في مارس 67 قبل الهزيمة " .. وفي تبكيتها لنفسها بعد مضيّ ثلاثة عشر عاما جاء قولها مبكتة لنفسها : "لقد كفــرت بالوجودية، وكفرت بماركس! لكن كفرك بهما جاء متأخرا .. كان ينبغي أن تراجعي نفسك بعد علاقتك الآثمة به بثلاثة أشهر ولــيس ثلاثة عشر عاما منذ ضربت الطائرات في صباح الخامس من يونيــو الحزين وهي رابضة في المطارات ولم تقم بطلعة واحدة"! وكــذلك قولها: "إننا نعيش هكذا من عام 67 " ! وواضح أن هذا التركيــز على تاريخ النكبة يكشف عن قصد تجسد في نفس القاص لما خلفت

من آثار بالغة السوء في الحياة الاجتماعية والسياسية للمجتمع الذي يعيش فيه أبطاله!

وقد خلف القاص طائفة من الإشارات الدالة التي ارتبطت بهذا التاريخ الأسود وما كان له من تأثيرات بالغة السوء على أبطال قصصه سردنا بعضها فيما سبق وسنسرد بعضها هنا؛ فمن ذلك ما جاء في قصة "حزن لا يموت": "نلقي الصحف الكاذبة بعيدا بكل ما تقدر أيدينا حتى لا تلوث أصابعنا بحبرها الأسود الخبيث ... الصحف لم تعد تلوث الأيدي، فقد مات العراب الكاذب رب الجنود بعد رحلته الأخيرة، غير المقدسة، وتركنا للفجيعة، وللحقيقة الوحيدة .. تركنا كالفئران .. أو قل أسرى في أيدي الغربان !!"
وفي موضع آخر يذكر القاص أن نبوية "كانت تطالع مجلة ملونة لا تتحدث بالطبع عن إسرائيل وحرب الاستتراف، والقائد الكهل الذي يريد أن يبسط سلطته المتآكلة على ثلة أصحابه الكهول بفعل الوقت والهزيمة".

وفي موضع آخر منها يقص خبر لقائه بابن خالته " العائد منهزما من حرب الساعات الست".

ــ أما المحور أو الموضوع الاجتماعي فقد ظفر بأربع قصص هي "الأولى: الدار بوضع اليد" والتي حظيت بعنوان المجموعة؛ وقد رصدت القصة طرفا من العلاقات الاجتماعية في القرية المصرية

يتعلق بالميراث .. ويظهر البطل الأستاذ حسني منذ البداية في حـــال شقاق وخلاف مع القرية "السلام" التي لكم تكن مسالمة معه في يوم من الأيام .. وتبدأ الحكاية بالكشف عن رغبة سمـــيرة في حيــــازة نصيب شقيقها حسني في البيت الذي خلفه الأب .. ومثل هذا الأمر "أن تطالب امرأة بنصيبها في دار أبيها" أمر غير معهـــود في قريـــة "السلام" ـــ طبعا ولا في غيرها من القرى المصرية، وكثير غيرها من قرى الأمصار العربية كما هو معروف .. ويرى البطل أن الموافقـــة على مثل هذا المشروع بمثابة القتل أو الموت لأنه ـــ إضافة إلى مـــا سبق ـــ بناه طوبةً طوبة مع أبيه منذ ثلاثة أعوام وقبـــل أن يمـــوت بشهرين .. وقد سار مشروع تقسيم البيت كما خُطِّط له انطلاقـــا من مبدأ أو قانون "وضع اليد" مع أنه هو الـــذي سمـــح لشـــقيقته بالإقامة فيه بعد انعزال زوجها عن أسرته .. ولشدة انتمائه إلى البلد اعتبر هذا الأمر بمثابة قلع لجذوره من القرية التي ارتبط بهـــا طـــوال حياته .. حتى إذا حاصرته محاولاتهم لإجباره على بيـــع نصـــيبه في البيت لم يجد بدا للموافقة وهو يردد: "هذه أول مرة في قرية السلام يخرج الرجل من دار أبيه لتقيم فيها البنت"! وتمت الصفقة!

وتأتي القصة الثانية "ما أجملها" لتطرح صورة أخـــرى مـــن الصور الاجتماعية للقرية المصرية حيث تحكي حالة اقتلاع أخرى أو انخلاع من القرية بتأثير الزوجة التي تكرههـــا .. حـــتى إذا ماتـــت

الزوجة انفصمت هذه الربقة فكرّ الزوج راجعا إلى القرية التي حرم منها طوال ثمانية وعشرين عاما ليعيد نشر جذوره في رحمها ويـنعم بالإقامة فيها وإعادة علاقاته الاجتماعية المقطعة مع أهلها.. ويكشف البطل عن دواعي ومبررات كراهية زوجته للقرية حيث إنها " تمتلئ بالحفاء والبعوض، ولا تسمع فيها شيئا "يسر القلب"؛ كما أنها تكره أخته الوحيدة "أم العز" لأنها تحرّضه على الزواج قبل أن يمرّ العمـر لإنجاب وريث يحمل اسم العائلة ويرث القدادين العشرة التي ورثها عن والده .. وما إن وطئت قدماه أرض القرية حتى أخذ يحس كأنه وُلد من جديد، كما أخذ يستعيد ذكرياته القديمة مع من بقي مـن رجالاتها ممن لم يصبهم حمى الاغتراب..

وأخذ يدرك مبلغ الخسارة التي مُنِي بها من جرّاء غيبته عـن القرية؛ كما أخذ يحس روعة الجمال الذي يتجسد في هذه القرية .. ولذلك حرص على أن يوطّد جذوره فيها عن طريق الـزواج مـن امرأة تنجب له الوريث الذي يحقق له التواصل بأسلافه بعد أن حرم منه كل تلك السنين .. وإن خابت محاولاته وتبخرت أحلامه!

ثم كانت القصة الثامنة "وجه آخر للفجيعة" التي انطوت على لوحة اجتماعية شائعة ومكرورة لدى كثير من الناس وإن كانـت تجسد حالة شاذة من حالات العلاقات الأسرية وهي "التقتير علـى الأبناء بحجة مقبولة أو مرفوضة"! وتبدأ القصة أو اللوحـة بحـوار

هادئ متزن بين الأم والأب تحاول الأم جاهدة تغيير سلوك الأب وسياسته في التقتير الذي يمارسه بحق أبنائه بحجة أن منحهم شيئا من المال والتوسيع عليهم يفسدهم .. وتدخل الأم عليه من زاوية مهمة بالغة الأثر عندما تدعوه أن يتخذهم إخوة له بعد أن حرم من الإخوة .. ولكنه يتمادى في الرفض والإصرار على سياسته الضالة وسلوكه المنحرف الأحمق .. وتُلم به نوبة ربو مفاجئة تقضي عليه، ويرفض الأبناء المشاركة في جنازته وتشييعه وتقبل العزاء فيه، أو حتى التعرف على قبره .. وهنا يكمن الوجه الآخر للفجيعة التي رصدها القاص وطرحتها القصة الاجتماعية المؤثرة والتي كان وجهها الأول يتمثل في تنكر الأب لأبنائه في التزام سياسة التقتير والبخل عليهم وحرمانهم من التمتع بماله، ثم جاء الوجه الآخر ليمثل ويجسد تنكر الأبناء لأبيهم بعد موته وإصرارهم على عدم المشاركة في جنازته ومعرفة قبره ليزوروه حينا بعد حين كما تقضي العادات والتقاليد!

وجاءت القصة الخامسة عشرة "بعد فوات الوقت" تطرح طرفا آخر من العلاقات الاجتماعية؛ فقد ماتت "امتثال" زوجة الخال ولم تشارك في تشييعها ابنة أخته "علياء" حتى بشيء من الدموع .. ولا يكشف لنا القاص من أحداث القصة ما يشير إلى دوافع هذا الموقف الغريب أو الشاذ قبل أن يسرد أطرافا من سيرة شخوصها

التي ذكر منها ذهاب "علياء" و"عبير" لإقامة عند خالهما أثناء دراستهما الجامعية .. ويرصد القاص للفتاتين موقفين متباينين إزاء زوجة الخال: موقف رافض وهو موقف علياء حيث رأت في زوجة الخال "امرأة فظة غليظة"، وموقف مسالم محب وهو موقف عبير التي لم تر في زوجة الخال رأي شقيقتها علياء .. وتمخض عن هذين الرأيين أو الموقفين أن أقامت عبير في بيت الخال وتمتعت برعاية زوجته، وآثرت علياء الإقامة في المدينة الجامعية .. وعبثا حاولت علياء أن تجد تفسيرا لهذا الموقف من زوجة الخال حتى كان مأتم زوجة الخال ليتناهى إلى مسامعها أن أمها هي التي اختارتها زوجة لأخيها وكانت زميلتها في العمل، ثم لم تلبث أن تقطعت العلاقات ما بينهما .. وواضح أن هذا الأمر لا يكشف عن حقيقة الأسباب الكامنة وراء موقف علياء من زوجة الخال، وأن القاص لم يفصح عن شيء من ذلك برغم تأكيده معرفة علياء ذلك وانكشاف الإجابة عن سؤالها القديم، إلا أننا نعلن آسفين عدم إدراكنا لهذا السبب ، وذلك لأن مثل هذه العبارة لا تكشف سبب انقطاع العلاقة الودودة ما بين الزوجة وشقيقة الزوج ليظل السبب غامضا يحتاج ومضة أخرى تشف عنه وتكشف غوامضه كأن تكون الزوجة لسبب أو لآخر استأثرت بالزوج وحرضته على قطع علاقته بشقيقته وابنتيها .. حتى إذا ماتت الأم والتقت الزوجة امتثال

بالفتاتين أدركت شبه علياء بزوجها / الخال، وشبه عبير بشقيقته .. ويبدو أن عامل الجمال كان المحرض في تحديد هذه العلاقات الاجتماعية حيث كانت عبير تشبه أمها التي كانت أجمل فتاة في القرية، في حين كانت علياء تشبه خالها و لم تكن في مثل جمال أمها وشقيقتها!

بقيت في المجموعة قصتان تطرحان قضيتين مختلفتين عن سائر قضايا المجموعة التي عرضناها وهما "عندما زارني المتنبي /11" , و"ليلة هند الأخيرة /14" ؛

أما القصة الأولى " المتنبي " فتحكي قصة " شويعر " أو شعرور" استلب لقب " المتنبي" واتخذه اسما له مدعيا إبداعه في الشعر .. وعندما التقاه القاص الراوي كشف له عن خمسة آخرين تُسُمّوا جميعا بالمتنبي لذات السبب .. وانبرى ينشده بعض قصائده التي كانت كلها مكسورة ومضطربة الوزن .. حتى إذا لفت نظره إلى ما شاع فيها من اضطراب الوزن اندفع يؤكد له صحتها واستواءها متهما إياه بجهله بالعروض لأنه يكتب شعر التفعيلة .. ومضى يفصح له عما يملأ نفسه من هموم بسبب انشغال الناس بكأس العالم سنة 82 وتجاهلهم ما أحدثته إسرائيل في لبنان عند اجتياحها بيروت وما تمخض عنه من انتحار الشاعر اللبناني خليل حاوي .. وإن لم

يرق له شعره لأنه "نثر"! ثم مضى يقرأ عليه قصائده غير عابئ بالناس الذين كانوا ينظرون إليهما مستنكرين !

أما القصة الأخرى " ليلة هند الأخيرة " 14/ ، فهي قصة يمكنت أن يتنازعها أكثر من اتجاه أو موضوع ؛ فهي من وجه تنتمي إلى الموضوع العاطفي الوجداني لما تقوم عليه من علاقة الحب التي ربطت بين شخصيتي القصة الرئيستين " هند وممدوح " ؛ كما يمكن أن تنتمي على الاتجاه الاجتماعي لما تجسده وتطرحه من قضايا اجتماعية معروفة وشائعة في المجتمع .. كذلك يمكن أن تنتمي إلى الاتجاه الفكري حيث تتبنى المشروع الوجودي أو الإيمان بالمبدأ أو الفلسفة الوجودية التي أخذت تشيع في هذه المرحلة التي كان "سارتر" أكبر فلاسفتها ومروجيها ، وكان مع عشيقته "سيمون دوبوفوار" يمثلان أكبر أقطابها وأشهر نماذجها .. وقد تأثرت شخصيتا القصة بهما تأثرا بالغا نتيجة لدراساتهما عليهما ومعايشتهما هذه الفلسفة إبان دراستهما في باريس وتلقيهما محاضرات سارتر ، وحرصا على أن يكونا نموذجين لسارتر وبوفوار"؛ ومضيا يمارسانها بلذة وجنون! حتى إذا أفاقت "هند" من غيبوبة الوجودية ، وأخذت تعيش واقعها وأدركت حقيقة سلوكها، بادرت تطالب عشيقها بتصحيح هذا الوضع الشاذ وإعلان زواجهما الشرعي، وإتاحة الفرصة لها للإنجاب .. ولكنه رفض الاستجابة لمطالبها وأصر على

المضي في ممارسة هذه الوجودية بحذافيرها متهما إياهـا بـالجنون والتنكر لهذه الفلسفة الوجودية التي آمنا بها كل ذلـك الإيمـان .. وعندئذ قررت هند قتله تحقيقا للعدالة المطلقة .. وغابت في رحلـة نفسية طويلة من اللوم والتبكيت لنفسها على ما فرطت فيه من عفة وشرف ممنّية نفسها بعفو الله ومغفرته عازمة على المضي في طريـق التوبة والأوبة إلى الله .. ثم أقدمت على قتله .. وتوجهت إلى نقطة الشرطة لتعترف بكل شيء !

هكذا كانت الوجودية وبالا على هنـد دمـرت عرضـها وأضاعت شرفها وعفافها، كما كانت الثورة والشيوعية والحريـة والانفتاح السياسي وبالا على "سناء علي خليل /سها" في "زيـارة (7) ودائما تكون المرأة هي الضحية لكل هـذه العقائـد الضـالة والأفكار المنحرفة إذا ما انغمرت فيها وانجرفت في تياراتها الصاخبة (انظر مثلا "سعدة في خندق المصير لحسين المناصرة)

وعلى هذه الشاكلة تبينت لنا معالم الموضـوعات والقضـايا المتنوعة التي عالجها القاص المبدع د. **حسين علي محمـد** في هـذه المجموعة "الدار بوضع اليد"؛ وهي موضوعات وقضـايا تمحـورت حول اتجاهات وموضوعات عـدة منـها العـاطفي والسياسـي والاجتماعي والفكري .. وقد وفق القاص المبدع أيما توفيق في طرح

مشكلاتها وتحديد أبعادها ومعالجة قضاياها وفق رؤية حصيفة واعية وعبقرية قصصية فائقة ..

وبعد هذه الجولة الماتعة بين قضايا المجموعة ومضامينها نود أن نلم في عجالة كاشفة ببعض مظاهر الإبداع فيها والتقنيات التي حرص على إيداعها فيها ووفرها لها مما ألفناه في مجموعاته القصصية الأخرى التي لقيت إقبالا طيبا وقبولا حسنا من القراء والنقاد على السواء !

ــ التشكيل الفني في المجموعة :

من يقرأ هذه المجموعة "الدار بوضع اليد" يتبين أن القاص الفاضل بما أوتيه من طاقات إبداعية قد وفر لها طائفة واسعة من التقنيات الفنية الرائعة التي حققت لها قدرا ظاهرا وضخما من الإبداع والإمتاع والتفوق سواء على مستويات السرد وأنماطه وما وظف فيها من حوار ماتع لطيف، وحقق لها من حبكة متماسكة متقنة أبدع في تطويرها وتصعيد أحداثها وتنويع حركية الصراع فيها لبلوغ لحظة التنوير بقدر وافر من التلقائية وتحاشي الافتعال والتكلف فضلا عن التعقيد وإحداث الفجوات الواسعة فيها .. وكذلك ما يلقانا في رسم الشخوص التي بنى عليها قصصه وأدار عليها أحداثها وحرصه على تحديد أبرز ملامحها وقسماتها وشياتها الفكرية والفنية

وغيرها سواء أكانوا رجالا أم نساء، وسوا تعددت الشــخوص في القصة الواحدة أم توحدت .. كما حرص القاص بشكل لافت على رصد الأبعاد النفسية للشخوص ســواء أكانــت تجســد مظــاهر الانسحاق أو مظاهر التمرد والرفض ومحاولة تغيير الواقع المفــروض عليها .. كذلك تجلى إبداع القاص وتفوقه بشكل لافت ومتميز في بناء قصصه وصياغتها وتوفير مختلف الجماليات الأسلوبية لها حتى إنه كاد يصوغها في لغة شاعرة توافرت لها كــل سمــات الشــاعرية وخصائصها ومظاهرها، وحتى ليخيّل للقارئ وهو يجوس خلالها أنه لا يقرا أقاصيص وحكايات، بل يقرأ شــعرا ، ويقلــب النظــر في قصائد، ويمتع ذائقته بعبارات رشيقة أحسن انتقاءهــا وتركيبــها، وأبدع في تدبيج عناصرها وأجزائها ، ووفر لها قدرا ضــخما مــن الموسيقا الرشيقة الخلابة .. وأينما قلبت في صــحائفها، وتتبعــت أحداثها ألفيت جمالا وروعة وسحرا قل أن تجد له ضريبا أو مثيلا في كثير من دواوين الشعر الجديد .. ووراء كل ذلك تلقانــا مظــاهر ومفاتن أخرى تناثرت في جنبات المجموعة سنحاول جهد الطاقــة رصدها والكشف عن بعض آثارها معتذرين عما ينفلت من إســار الرصد، ويفوت الذاكرة مما هو حقيق بالرصد، وقمــين بالإشــارة والتنويه!

ـ البطل: أبطال المجموعة المأزومون بين الانسحاق والتمرد:

من يقرأ مجموعة " الدار بوضع اليد " يحس عناية فائقة بانتقاء أبطالها سواء أكانوا من الرجال أم من النساء ، وسواء أكانوا متعددين في إطار القصة الواحدة أم كانوا منفردين .. فقد حرص القاص المبدع في كل ذلك على إبراز أهم الملامح والقسمات والعناصر المميزة لهم ..

والذي يعنينا في هذا الجانب الكشف عن مظاهر الانسحاق والتمرد والرفض ورصدها في أبطاله أو شخوصه المهمة التي حرص على إبرازها والتركيز عليها لما تنطوي عليه من دلالات واعية وإشارات مقصودة ..

فأما مظاهر الانسحاق فتلقانا في عدد من قصص المجموعة منها ما جاء في القصة الأولى "الدار بوضع اليد" والتي تتجسد في شخصية "الأستاذ حسني" الذي رصده القاص وهو محاصر من شقيقته سميرة والحاج محروس وهما يراودانه على بيع نصيبه في الدار التي بناها مع والده طوبة طوبة .. وتتجسد مظاهر الانسحاق فيها من خلال تصرفات أخواته البنات اللاتي بعن البيت وتصرفن دون مشورته وأخذ رأيه وتعرف موافقته بعد أن نأى عن القرية وأقام في

البندر .. واجتمع أمرهن على الاستيلاء على نصيبه من الدار راضيا أو كارها غير آبهات لما ينجم عن ذلك من خلع جذوره من القرية .. وقد تزامن هذا الحدث أو المشكلة مع مشكلة أخرى كانت بالغة الأثر في نفسه وهي مرض ابنته الصغيرة المصابة بالشلل وانشغاله بعلاجها والتنقل بها بين المشافي .. كذلك كان من مظاهر الانسحاق التي يعاني منها البطل هنا ما يتصل بطبيعة العمل الذي يمارسه وما يستغرقه من مشاق في أثناء تنقله اليومي ما بين ديرب نجم والزقازيق " وما جرّ عليه من حرمان من الدروس الخصوصية التي تشكل هما ضخما من هموم هذه الطبقة من طبقات المجتمع .. والتي كانت توفر له قدرا من المال لتغطية نفقاته الضرورية " فالثلاجة عطلانة من أسبوعين، والبنت مريضة! لا شك أنك ستستدين خمسة عشر جنيها لتكون معك وأنت ذاهب للطبيب غدا .. رحماك يا رب"!

واقرأ هذا المشهد الذي تتجسد فيه مظاهر الإحساس الحاد بالانسحاق الذي كانت نفس حسني تموج به: "ليتك تعمل خيرا وتبيع نصيبك لسميرة يا أستاذ حسني!

تفلتَ يسارا على الأرض في قرف حتى يحس بجرمه في حقك. لماذا يريد هذا الرجل أن يخلعك من القرية؟ .. ابتسمت له ابتسامة صفراء كلقبه الذي يحمله على كتفيه:

أنت يا حاج محروس تريد أن تقتلع جذوري من السلام .. ما مصلحتك في ذلك ؟

قال في وقاحة : سميرة ابنتي وابنتك !

ـــ هي ليست ابنتي .. هي أكبر مني بعامين .. وحينما طلبت خروجها من البيت في آخر زيارة ردّت بوقاحة وقالت: الدار بوضع اليد! ولن لأخرج منها.

قال متراجعا : فهيمة شقيقتكما الكبرى باعت نصيبها لسميرة.. بع لها أنت الآخر .. أنت ابن حلال ! ـــ وكأنك ستكون ابن حرام إذا لم تبع لسميرة ! نطقتَ في استسلام وكأنك ترفع الراية البيضاء: هذه أول مرة في قرية السلام يخرج الرجل من دار أبيه لتقيم فيها البنت!"

ويختم المشهد بهذه العبارة الموجهة إلى محروس الأصفر:

ـــ لتتذكر دائما أنك أنت الذي خلعتني من القرية !

وربما كان إصراره على أخذ المبلغ المتفق عليه للبيع من خلال عبارة "على داير المليم الواحد" ضربا من التنفيس عن الانسحاق النفسي الحاد الذي كان يحسه آنذاك ويعاني منه.

وفي القصة الثانية "ما أجملها" تلقانا صورة أخرى للانسحاق الذي يعاني منه البطل من جراء حرمانه من القرية التي ولد فيها وترعرع فوق ترابها الطيب؛ أو قل انخلاع جذوره الضاربة في رحمها

بسبب كراهية الزوجة لها ورفضها التصالح معها؛ فقد حرمت "عدلي منصور" زوجته آمال من قريته ثمانية وعشرين عاما حيث كانت تكره القرية التي كانت تمتلئ بالحفاء والبعوض ولا تسمع فيها شيئا "يسر القلب"، وتكره أخته الوحيدة "أم الغز" لأنها تحرضه على الزواج قبل أن يمر العمر لإنجاب وريث يحمل اسم العائلة، ويرث الفدادين العشرة التي ورثها عن والده"! وما إن ماتت زوجته حتى يمم وجهه شطر القرية التي حرم منها كل تلك السنين، ثم أخذ يعيد علاقاته القديمة المنبتة مع القرية وأهلها، وكأنه يحاول جاهدا أن يثبت جذوره التي اقتلعتها زوجته في رحم القرية .. كما كانت مرحلة العقم الطويلة التي قضاها مع زوجته العاقر تزرع في نفسه قدرا هائلا من الانسحاق وتمثل مظهرا آخر من الإحساس بالهوان والنقص والانخلاع من رحم الأرض واقتلاع جذور الحياة من كيانه المحطوم .. فجاءت فترة العودة إلى القرية في عقب موت زوجته ضربا من التنفيس العميق عن كل ما يثقل نفسه من أحاسيس وضغوط عندما حرص على إعادة توثيق علاقاته القديمة بأهل القرية .. كما دفعته هذه الحالة النفسية إلى إعادة الحياة إلى كيانه المتهدم عبر البحث عن زوجة جديدة تحقق له آماله القديمة التي أوشكت على الاندثار بإنجاب الوريث الذي يحمل اسم العائلة .. وقد كانت إحدى فتيات القرية القديمة "وردة" مجالا لتحقيق هذا الأمل .. ولكنه سرعان ما

تنازل عن هذا الأمل أو الهدف الذي منّى نفسه به طـويلا عنـدما أدرك أن "وردة" كانت في مثل سنه " 64 سنة " ، وقد تجـاوزت سن اليأس شريطة أن تكون ما تزال تحتفظ بقدر من جمالها القـديم .. بيد أن هذا الشرط الذي كان نتيجة لتنازل عميق سـرعان مـا تبخر عندما رأى وردة وما ألمّ بها من ضروب التغير الشامل حيـث أصبحت "بلا رقبة تقريبا، أصبحت بدينة جدا، غير قـادرة علـى الحركة .. وأن أسنانها كلها سقطت، كما كانت مصـابة بمـرض السكر الذي كاد أن يبتر ساقها اليمنى"! بل لعل ما رأى من حـال وردة هو الذي أصابه بالغثيان فعثرت رجله وسقط أمامهـا علـى الأرض ..

وفي القصة الثالثة "نوال تقرأ الحقول" إحدى حلقات التغريبة اليمانية التي مارسها القاص الفاضل إبان مرحلة الاغتراب، يلقانـا مظهر آخر للانسحاق الذي يعاني منه البطـل والـذي يتمثـل في الخوف من العقم وعدم الإنجاب حيث كانت البطلة "نوال اليمنية" تقترب من الخامسة والأربعين و لم تحمل في أحشائها ثمـرة، وبـدأ الإحساس بالجفاف والحرمان من الإنجاب يملأ نفسها وهي ترى فترة الخصوبة توشك على الانقضاء وقد مضى على زواجها مـن ابـن خالتها تسع وعشرون سنة ، وذلك بسبب غياب الزوج الطويـل عنها حيث "يتركها ليعمل حارسا لمبنى في صنعاء ويعود كل شـهر

ليقضي مع زوجته ليلة أو ليلتين"! ويرصدها القاص في حالة من حالات الانسحاق النفسي وهي تتأمل زوجين من الحمام يتناغيان في سعادة غامرة وبجوارهما فرخاهما ينتظران وضع الطعام في مناقيرهما الصغيرة .. ويستبد بها الشوق فتجأر بمرارة وأسى بالغين بمثل هذه العبارات المثقلة بالشوق والمرارة والألم: "متى يجيء الغد؟! متى تشرق شمسك في أرضي يا عبد الولي ولا تغيب؟! متى نتقافز مثل فرخي حمام ؟!".

على أننا إذا ما تجاوزنا مظاهر الانسحاق النفسي الناجم عن الجوع الجنسي والحرمان من الزوج ، فإننا لا نرى شيئا من ذلك يمكن أن يرتد إلى دائرة الخوف من عدم الإنجاب وذلك لأن هذه المرأة قد مضى على زواجها زهاء ثلاثين سنة كان الزوج يتردد عليها ليلة أو ليلتين كل شهر دون أن تحمل أو تنجب منه ولدا .. وهذا أمر قد يجعلها شريكة للزوج حيث يمكن أن يكون العقم من جانبها أيضا .. وإن سكت القاص عن ذلك منحيا باللائمة على الرجل الذي ترك زوجته كالأرض البور تنتظر الحرث والزرع دون جدوى!

وهذه القصة أو الحلقة من التغريبة اليمانية التي عاشها القاص في مرحلة من حياته تستدعي قصة أو حلقة أخرى من حلقات وأقاصيص هذه التغريبة اليمانية وهي القصة العاشرة التي أخذت

عنوان "ظمأ"؛ وهي مثل نظيرتها الآنفة الذكر تجسد ظاهرة الانسحاق النفسي الناجم عن غياب الرجل عن زوجته فترات طويلة تحرمها من إطفاء لهيب الشهوة أو الغريزة الجنسية المستعرة في أعماقها، والتخلص من أُوار الجوع الجنسي المضطرم في نفسها .. وإذا كانت صاحبته السابقة "نوال" قد حظيت بزوج يتردد عليها كل شهر ليلة أو ليلتين فقط، فإن صاحبته الأخرى "س ×" قد منيت بزوج يتغيب عنها طويلا ولا يأتي إليها إلا مرة كل عامين، ثم يتركها كالأرض البور تنتظر الحرث والزرع .. ولذا اندفعت تجأر بمثل هذه العبارات الصارخة: "أيها الزوج البعيد، لأنت رجل سيّئ الطالع، لم تنعم بدفء العلاقة الزوجية كما ينبغي؛ وأنا كذلك! لم نعم أنا وأنت بعش الزوجية السعيد، و لم يشبع أحدنا من الآخر! جميل يشتاق إليك ويسأل دائما: أين أبي؟ لماذا تبعد عنا؟ كان يمكنك أن تعمل في الأحد أو في ذمار، وتبيت معنا كل يوم، أو تجيء كل أسبوع لتقضي معنا يومين إذا عملت في صنعاء. أكان لا بدّ أن تسافر ؟ أتريدنا مرة أخرى أم لن تعود؟!

ويبدو أن البطلة هنا لم تعلم بأمر البطلة السابقة التي كان زوجها يعمل حارسا في صنعاء، ومع ذلك لم يكن يزورها إلا ليلة أو ليلتين كل شهر، و لم يتحقق لها الاستقرار النفسي فضلا عن الإنجاب الذي تحقق للأخرى!

ومهما يكن فقد حققت القصتان الهدف الذي سعى إليه القاص وهو يصدر عن أحاسيس طائفة من المجتمع اليمني تعرضت لكثير من الضرر بسبب غياب أزواجهن عنهن فترات طويلة تخلف في النفس كثيرا من الآثار السيئة والخطيرة بسبب ما يعانين منه من جوع جنسي بالغ!

كما جسدت القصتان الآثار السلبية المدمرة للاغتراب، وجاءتا دعوة صارخة وحادة لمعالجته ووضع حد لما يتمخض عنه من مآس وأزمات نفسية واجتماعية ..

وفي القصة الثامنة "وجه آخر للفجيعة" يتجسد الانسحاق النفسي لدى الأبناء الناجم عن معاناتهم البشعة والقاسية من سياسة التقتير والبخل التي كان الأب يمارسها بحقهم، وقد عجزت الأم عن إقناعه بخطأ هذه السياسة الفاشلة ودعوته إلى أن يتخذهم إخوة له يشدون أزره ويسندونه في أموره، وتحذيره من مغبة هذا السلوك وما يمكن أن يخلفه في نفوسهم من كراهية وشنآن قد يدفعهم إلى أن يتمنوا موته .. وتعمقت الفجوة بينه وبينهم، وتقطعت الأواصر والروابط ما بينهم .. حتى إذا مات الأب تجاهله الأبناء وتنكروا له وأجمعوا على عدم المشاركة في جنازته وتقبل العزاء فيه، بل إنهم رفضوا أن يعرفوا موضع دفنه لئلا يفكروا بزيارته يوما من الأيام!

وفي القصة الثالثة عشرة "قبل السقوط" تتجسد معاناة الزوجة وإحساسها بالانسحاق النفسي حيث يرصد القاص البطلة "الزوجة" وهي تصارع أمواج السقوط في الرذيلة بسبب حمق الزوج وغفلتـه وسوء تصرفه حيث أحضر أخاه الطالب الجامعي ليقيم معهمـا في الشقة مؤججا لهيب الشهوة المحرمة .. وتبدأ مظاهر الصراع النفسي تموج في نفس الزوجة وهي تنطلق في تقريع زوجها وتبكيته علـى سلوكه الأحمق وغبائه وهو يُدني النار من البنزين ليشـعل البيـت الهادئ .. "هل شاهدتني في الليل وآخر فرع من شـجرة التـوت يهوي، وأنت يا زوجي ـــ الغيور ـــ ترفع يدك المتثائبة لتثبت الفرع في الشجرة حتى لا يهوي وقد ختم على فمك وعينيك النعاس؟!

هاهو أخوك الشاب يعدني أن يقطف الثمرة التي حرمها الزوج على نفسه ما دام يدمن الغياب حتى لو كان حاضرا!

مرة أخرى، يا من اسمك زوجي .. أيها الرجـل الخرتيـت، تريدني مرة أخرى أن أسقط وأنا على شفا الموت .. تريـدني أنـا المريضة بالكبد أن أخطئ؟! ... دعني أمضغ وهمي وأرقص ميتـة في عالم الأحياء! ... يا للخيبة! أنت لم تعرف إلا ظلمة الليل، ولم تعش إلا بين الجماد والحفر.. ولم تر إلا الحجر الجامد الذي لم تستطع أن تفجر منه عيون الماء!".

ثم تأتي قصة "ليلة هند الأخيرة" /14 التي يرصد فيها القاص البطلة "هند" في ليلتها الأخيرة مع عشيقها الذي كانت تشاطره ممارسة الوجودية بلذة وجنون وقد حرصا على أن يكونا نموذجين فائقين وصورة دقيقة من "سارتر وبوفوار" .. واستمرت هذه العلاقة القذرة ثلاث عشرة سنة .. وحينما أحست بانسراب العمر من بين يديها وخواء هذه الفلسفة الشاذة وخسرانها المطلق لكل شيء قررت أن تضع حدا لها آملة أن تجد مثل هذا الموقف من عشيقها الوجودي الفاسق .. "تحس بصداع يكاد يفلق رأسها، وبنهر ألم يتدفق في عينها اليسرى .. سترك يا كريم! هل من حقي أن أبحث عن الستر الآن؟!

ثم تأمل هذا الحوار الذي دار بينها وبين أختها وما قذفتها به من قارس القول بعد أن نفد صبرها وعجزت عن احتمال فسقها وفجورها : "ظللت طول عمرك ساقطة وسافلة؛ فهل تتوبين الآن قبل أن تموتي فيقبل الله توبتك؟!

ثم تأمل حال هند غبّ تلك السنين العقم: "شجرة هند لم تثمر إلا الشوك والحنظل"!

لقد هال عشيقها الوجودي ما رأى من سلوكياتها الغريبة عليه والمنافية للوجودية وهي تتأهب للعودة إلى الله والتوبة عن ذنوبها وخطاياها: "أراك تصلين؟! وتجيبه بقولها: "لم أشعر بالسقوط إلا

أمس بعد كلام شقيقتي"! واسترسلت في سرد بدايات هذه العلاقة الآثمة التي كانت ثمرة الضلال والانحراف تحت وطأة الوجودية التي ترفض الزواج الشرعي وتستبدل به زواجا آخر بلا عقد ولا شهود ولا وليّ ولا فرح، فضلا عن حرمانها من حقها الطبيعي في الإنجاب من هذه العلاقة القذرة بحجة الاكتفاء بالحب الذي يربط بينهما .. ولم يقتنع بتأكيدها أن هذه العلاقة الآثمة، أو الزواج غير الشرعي كان وبالا عليهما معا .. وتفصح عن رغبتها الأكيدة وإصرارها على تصحيح هذا الوضع الشاذ بإعلان زواجهما الشرعي وتحقيق رغبتها في الإنجاب .. ولكنها تقابل بالرفض والاتهام بالجنون "لست أكثر من طفلة صغيرة لم تفهمي الوجودبة التي ظللنا طوال عمرنا نبحث عنها وندرسها ونطبقها"!

ولم تجد أمامها سوى الخلاص منه تحقيقا للعدالة المطلقة: "في الصباح تسرب خط من الدماء من تحت الباب، وعلى باب الشقة كانت أصابع يد هند الخمس المضمخة بالدم ما زالت معلقة"!

وواضح أن "هند" في هذه القصة جاءت لتجسد مظهر الانسحاق والرفض والتمرد على الوضع الشاذ الذي كانت تعيشه من خلال العلاقة الآثمة بعشيقها الوجودي لتعلن كفرها بهذه الوجودية الضالة المنحرفة العقيمة حتى لو كان ذلك عبر جريمة

قررت أن تتحمل عواقبها مهما كانت لتكون تكفيرا عن انسحاقها الهائل تحت وطأة الوجودية!

ويضرب القاص الفاضل مثلا آخر للرفض والتمرد الذي استعر في نفوس شخوصه من خلال القصة الأخيرة في المجموعة "البنات .. البنات" حيث يقفنا على قرار الحبيبة المطحونة بالخيبة، المسحوقة بالانتظار الذي لا تبدو له نهاية، فقد عقدت العزم على التمرد على استمرار علاقتها بخطيبها ورفض حالة "الزواج مع وقف التنفيذ"، والذي مضى عليه ثلاث سنوات دون أن ترى بارقة أمل بعبور هذا المضيق "من التنظير إلى التطبيق"! وتحين لحظة التنوير الحاسمة وهي تتأمل الثمثال البرونزي للزعيم عرابي وهو يمتطي صهوة جواده فتبادر خطيبها قائلة:

"ليتك تجد مثله لتركبه ليلة زفافك على عروس غيري"! ثم نظرت للناحية الأخرى وخلعت "الدبلة" ووضعتها في حقيبتها وقفزت في خفة تقلد "سعاد" الأخرى، وتغني في أنين مكبوت: البنات .. البنات!! وسالت من عيني دموع كثيرة "!!

وواضح أن البطلة هنا أعلنت رفضها وتمردها على وضعها الموقوف، وقررت أن تضع لسلبيتها وانسحاقها نهاية عملية، في حين اكتفى البطل باستمرار الشعور بالانسحاق السلبي عبر تلك الدموع

الغزيرة التي أخذت تسيل من عينيه أسفا وحزنا على هذا الحب الضائع المقهور!

على هذه الشاكلة تراءى لنا أبطال مجموعة "الدار بوضع اليد" الذين كانوا يتردَّدون بين السقوط والانسحاق والسلبية الخائبة، وبين التمرد والرفض والبحث عن العبور إلى تخوم التغيير والتحول كائنة ما تكون العواقب والتبعات! وقد ألفينا القاص المبدع في قصص هؤلاء وهؤلاء حريصا على رصد حركة أبطاله وشخوصه وتسجيل دوافعهم النفسية ونوازعهم وطاقاتهم وقدراتهم على التكيف والاستلاب والانسحاق، أو عجزهم عن كل ذلك واندفاعهم تحت إلحاح الذات والاستجابة لنوازعها المتمردة الراغبة في التغيير بما أوتوا من قدرة على التمرد والرفض لدوافع السقوط ومجابهة نوازع الاستلاب التي تنتصب في وجوههم، وتتجذر في نفوسهم!

وإذا تركنا هذه الظاهرة النفسية البالغة الأثر ألفينا ثم ظاهرة أخرى حرص القاص الفاضل على التركيز عليها والكشف عن مظاهرها وهو يرسم ملامح شخوصه وشياتهم الرئيسة، حيث وجدناه يحاول بين الحين والحين رصد شيء من تلك الملامح والصفات المهمة والمميزة في بعض شخوصه على نحو ما نجد في شخصية "رباب" بطلة قصته الخامسة، فعلى الرغم من إهمال القاص

لملامحها وإغفاله لخطوط نفسيتها الأساسية، وأنه لم يفصح عن شيء من ذلك فيما وراء عبارتها التي جأرت بها في بعض حالات الاستلاب أو الانسحاق التي كانت تغرق فيها وهي "رباب لا تناسب مساكن علب الصفيح"! ثم غابت رباب إثر تغييب السلطة لها كأحد شخوص القصة الفاعلة والمتطورة أو المحورية، وقد اكتفى القاص بسرد الانطباعات والآثار أو الأوهام التي خلفتها في نفس البطل "عبد الستار" / عنترة، حيث صنع منها مغنية فائقة الإبداع في هذا الفن تخصصت في مهاجمة السلطة في أغان ثورية بذيئة "في رأي السلطة، و"أنها تغني للحياة والمستقبل ولم تهاجم أحداً" في رأي البطل .. بل إنه يرفض مختلف الادعاءات الكاذبة والافتراءات الباطلة التي تسعى وسائل السلطة جاهدة لإلصاقها بها لتشويه صورتها النقية المشرقة في نفسه: "رباب لا تباع أو تعرض في سوق للرقيق"! بل إنه يؤكد أمله الكبير في عودتها الوشيكة برغم كل ما ينصب في طريقه من عوائق وسدود: "لا أبصر القضبان حول خطواتي .. أو في رحابة أفقي .. أو عائقة عن قدوم فجري بعودة "رباب"!!

وفي القصة السادسة "حزن لا يموت" تطالعنا بعض الخطوط المميزة لشخصية "فريال" التي كانت في الأربعين، ولم تتزوج، وتهوى اصطياد اليمام والعصافير، وتحب قتل الفراشات واغتيال الورود"!! وهذه الصورة القاسية أو قل البشعة لهذه المرأة إنما كانت

نتيجة لموقفها من فتاته التي كان يحبها "نبوية"، وموقفها الرافض لها حيث كانت "تراها قطة لها أنياب"!

ويفنّد رأيها هذا مؤكدا مرة أخرى ما اتصفت به من قسوة وكراهية لكل مظاهر الجمال في الوجود: "قطة لها أنياب"! ماذا تقولين يا فريال؟ أنت لا تعرفين القطط، ولا تحبين الفراشات أو الورود"!! ومع أن أمه أيضا كانت ترى فيها ـــ "نبوية" ـــ رأيا لا يروق له، فضلا عن أن يتقبله، وهو قريب من رأي فريال، إلا أنه لم يجابهها بمثل ما جابه به فريال آنفا، وربما كان ذلك لمكانة أمه في نفسه وتقديره لها مما لم تحظ به شقيقته فريال .. وربما وجد للأم مبررا لهذا الموقف سواء أقبله أم رفضه؛ ذلك أن الأم كرهت تجذر حب نبوية في نفس ابنها بشكل لم تطقه، وتعلق قلبه بها على هذا النحو العجيب مما جعلها لا تكف عن ترديد عبارة "إن نبوية ليست آخر الدنيا"! وذلك من باب الشفقة والعطف والخوف على مصير ابنها إذا ما استمر تعلق قلبه بها على مثل هذا النحو! وهو موقف لم يكن يشبه موقف فريال مطلقا!

وفي القصة السابعة "زيارة" يرصد القاص أطرافاً من ملامح شخصية "سها" وهو الاسم الذي اتخذته بدلا من اسمها الحقيقي "سناء علي خليل" لسبب أو لآخر، أو كما تقول "اسم من ضرورات المرحلة" التي كانت تمر بها بعد علاقتها بصفوت نعمان

وما كان يسودها من سقوط .. وأما العمر الذي عاشته فهو كما تقول: "ألف عام في التيه، وممارسة الخطيئة بلا لذة وكأني أعذب نفسي"! وأشد ما كان يؤذيها إلى حد القتل "الملل"! وهذا يعني أن البطلة كانت في هذا الوقت تجتاز مرحلة خطيرة من حياتها التي أضاعتها في التقلب بين طلاب المتعة العابرة، كما كان للانخراط في العمل السياسي دور بارز في ذلك "تزوجت القضية! قضايا مصر وإفريقيا ودول العالم الثالث"! وعندما سألها صفوت نعمان ذات صباح جنائزي أسود عن سبب عدم زواجها والذي كانت رحلاتها تتوقف في شقته مرتين أسبوعيا حتى بعد أن مرت سنوات النضال بحلوها ومرها، خُيّل إليها أنه يفكر في الزواج منها؛ ولكنها صُعِقت عندما قال لها: وهل من الممكن أن أتزوج في هذه السن؟! لأنها رأت في هذا الجواب انحرافا ظاهرا عن السبب الحقيقي لعدم التفكير في الزواج منها وهو ما أشارت إليه بقولها: "كأن عينيه تقولان: وهل أتزوج داعرة مثلك"! وهنا تكشف طرفا من المرحلة التي شهدت هذا التحول في سيرتها وشخصيتها ومن كان المسؤول عن ذلك: "هل ينسى هو ورفاقه أنهم هم الذين صنعوا مني هذه الداعرة؟! وهم الذين لوّثوا هذه القروية الغريرة التي كانت ذات يوم جميلة"! وهذه المرحلة ابتدأت في معهد حلوان الاشتراكي إبان سنوات النضال قبل هزيمة يونيو 67"، وإن ظن صفوت عيسى أن

ذلك كان عقب تلك الهزيمة!! وحتى في ختام هذه الزيارة تكشف البطلة عن انسحاقها النفسي الذي دفعها إلى زيارة هذا الطبيب / الصديق القديم الذي لم تلق عنده ما يخفف من آلامها النفسية ولكنها اضطرت للاستماع إليه طمعا في أن تحقق لنفسها قدرا من النسيان لما يملأ نفسها من جراح: "كان عليّ أن أستمع له لأنسى وحدتي والكثير من جراحي، وأجعل "سها" المأزومة تنسى تلك الأيام التي تطاردها، وتنكأ جراحها، وأساعدها على أن تقذف ذلك الماضي الحزين القاتل الذي يطاردها في صحيفة الزبالة التي بجانبه"!

وتبرز "حياة" بطلة قصته التاسعة التي اتخذ لها رمزا بالغ الدلالة وهو "زرقاء اليمامة" وإن لم يعرض في القصة شيئا من دلالات هذا الرمز الشديد الإيحاء .. وكل ما جاء به قوله مخاطبا لها في عالمها الآخر: "تكلمي بمثل كلامك القديم الذي يرن صداه في أذنيّ، والذي لم يصدأ بعد"! مع أننا لم نجد في القصة شيئا من ذلك الكلام القديم! أما الرمز الذي استعاره لها فهو الذي جاء به في قوله مخاطبا إياها: "تكلمي .. فزرقاء اليمامة صارت بموتك صامتة .. ولم تعد ترى الأشجار وهي تسير في طرقنا التي صارت معتمة!!".

وهكذا لم يقف القاص وهو يطرح شخصية "حياة" / زرقاء اليمامة" إلا عند جانب واحد أو خط واحد من شخصيتها وهو موتها، حيث قتلتها سيارة مجنونة في طريق عودتها إلى القرية بعد

انتهاء الامتحانات .. وأثّر موتها المفاجئ علـــى والـــدها الــــذي لم يستطع احتمال هذه الصدمة النفسية المدمرة عبر بعض العبارات التي طفحت على لسانه من مثل: "ماذا فعلت بك الحياة يا حيـــاة؟".. "أين ذهبت وتركتنا يا حياة ؟"، "لا أدري لِمَ لَم تعط الحياةُ فرصتَها لحياة؟ هل لأن القبح والدمامة صارت لهما الغلبة في الحيـــاة أم أن في اختفائها إشارة إلى اختفاء العقل والمنطق من حياتنا؟" وعقـــب هذه الإشارات والشذرات التي طفحت على لسان الأستاذ ـــ والد حياة، اندفع القاص الراوي يكمل مشوار حياة، أو قل مشواره مـــع حياة، فاستلم دفة الحديث عن حياة / زرقاء اليمامة مركزا على أبرز خصائصها وشياتها المميزة " ثقافة وفكر وأدب ونقد للواقع "، فضلا عن أثر موتها عليه ..

أما والدها الأستاذ ، فقد طرح من صفاته قدرا طيبا يجســـد ملامح هذه الشخصية المتميزة، فهو "مدرس للتاريخ! كان يـــدرس التاريخ وكأنه يدرس قصة عشقه، وكان يدرس التـــاريخ في تجـــرد وإخلاص .. وضع كتابا واحدا في التاريخ هو "تاريخ العســـكرية المصرية" من عهد مينا موحد القطرين إلى قيام ثورة 1952"، كان يرى في المدرسة مركز إشعاع في البيئة، مما جعلـــه يلقـــي خطبتـــه الأسبوعية يوم الأحد، وهو يوم السوق في المنطقة لتكون الفائـــدة مزدوجة داخل المدرسة وخارجها .. سرد القاص له مجموعة مـــن

الآراء الحصيفة الدالة على شخصية الوطن والأمة وقـدرتها علـى إنجاب الزعامات المخلصة، مؤكدا زوال الفئات المستغلة التي تسرق أقوات الشعب .. أما علاقة القاص بهذا الأستاذ فهي علاقته بابنتـه حياة وتلقيهما مادة التاريخ على يديه، وتأثيره البالغ في توجههمـا لدراسة التاريخ في الجامعة ..

وفي القصة الثانية عشرة "امـرأة وعصـافير" تلقانـا أربـع شخصيات : رجلان هما "أحمد راسم كمال" و"سـعيد نعمـان"، وامرأتان هما "سعاد" وشقيقتها "مريم"؛ أما "أحمد"، فهـو رسـام، وكان الزوج الأول لمريم، ثم طلقها عند ذهابه إلى الجزائر ليتزوجها الآخر "سعيد"، والذي طلقها استجابة لرغبتها لتعود من جديد إلى عصمة الزوج الأول الذي لم يستطع تجاوز فعلتها الفظيعة بـالزواج من سعيد، ولم يقدر دافعها إليه وهو الخوف من الفتنة، وقرر قتلها ولكنه أرجأه إلى حين عودته من بيروت حيث كان يقيم معرضـا تشكيليا .. كما ركز القاص على صفاته الجسمية والنفسـية الـتي تجعله يبدو معوقا ودميما "رأس صغير كأنه رأس هدهد، وسـاقان عجفاوان كأنهما ساقا ماعز، وعينان غائرتان كأنهما كهف قـديم يوشك أن يتوارى بفعل الزمن وعوامل التعرية"! وتقول عنه أختـها سعاد: "ما زال بأذنيك يا مريم نقيق الضفدع الـذي رحـل ذات صباح باكر إلى أرض بعيدة تمتلئ بالطحالب .. ولم يعد أبدا .. عاد

جسما دون روح .. ثم اختطفك منا"! وفي عودته إليها تقول: "ها هو طليقك يعود مستبقا خفافيش الليل، وفي يده زنبقة مسمومة، وأنت تحلمين بالطيور الخضر، وبالزنابق المائية الملونة! إنني أرى في يديه كأس السم .. ألا ترينه؟! إنه يتقطر في دمع عينيك المنهمر دائما"!

كذلك ظهرت في لوحاته التي رسمها في المرحلة الأخيرة مظاهر التحول العميقة التي حدثت له من جراء علاقة زوجته بزوجها الآخر .. يقول الناقد التشكيلي صابر جودة "إن لوحاتك معتمة، وصورة زوجتك تحتل خلفية لوحاتك .. خطوطك تكشف عن حزن كبير يجتاحك! .. وفي لوحاتك الأخيرة تتجبر ريشتك على المخلوقات الضعيفة! كأنك تُبارك الجبروت والقوة، وتحتفي بالغربان والخفافيش!!".

.. أما أبرز صفات الزوج الآخر "سعيد نعمان" فهي أنه كان يحب زوجته حبا دفعه إلى أن يوافق على رغبتها في الطلاق للعودة إلى الزوج الأول عندما ألمت به نوبة ربو مفاجئة .. وتقرر أنها لم تلق منه إساءة ما يمكن أن تصرفها عن حبه، وأنجبت منه ابنتين ، وأنجبت من الأول ولدا ..

ويلاحظ القارئ أن ملامح شخصية سعاد فيما وراء رأيها في زوج مريم الأول "أحمد" قد اختفت وكأنها أرادت، أو هكذا أراد

القاص أن يخلي المساحة المتاحة لها لشقيقتها مريم الحائرة المترددة بين زوجين لتطرح أطرافا من صفاتها وملامحها المميزة منذ أن كانـــت طفلة وإلى حين زواجها من هذين الرجلين .. وإذا حاولنا أن نتبين أبرز ملامح "مريم" فإننا نجد القاص قد رصدها في القسم الخاص بها من القصة في الفترة التي تلت سفر زوجها أحمد إلى بيروت مركـــزا على انتظارها عودته بصبر نافد لما تكنه له من حب جارف، بـــرغم ما يعتريها من خوف وأسى وحزن عميق تمثل في حركة العصـــافير المتطايرة في سماء الحجرة التي كان يفترسها ظل جناحي الغـــراب .. ومع أن هذين الجناحين قد اختفيا إلى حين فإن العصـــافير مـــدت مناقيرها وأخذت تنقر وجهها!! أما الصورة الجمالية لمـــريم فقـــد تجسدت من خلال صورة "ماشا بطلة "تشيكوف" كما تقرر ذلك سعاد حيث تقول : "كلما رأيتك تذكرت وصـــف "تشـــيكوف" لبطلته "ماشا": "كانت بالضبط تملك هذا الجمال الذي يُدخل تمليه في قلبك من حيث لا تعلم ، الثقة بأنك ترى ملامح ســـوية، وأن الشعر والأنف والعينين والفم والعنق والصدر .. كل حركات هذا الجسد الشاب قد اتحدت كلها في نغمة هارمونية متكاملة، لم تخطئ الطبيعة فيها خطأ صغيرا واحدا"!

كأنه كان يرسمك أنت!"

على هذه الشاكلة تبينت لنا مواقف القاص وهو يرصد أطرافا من ملامح شخوصه التي أدار حولها أحداث قصص مجموعة "الـــدار بوضع اليد"، ويرسمها بإبداع ظاهر وعبقرية فذة!

ـــ الحبكة وتطوير الأحداث :

من بطالع قصص مجموعة "الدار بوضع اليد" يدرك للوهلـــة الأولى ما حقق لها القاص المبدع من حبكة دقيقة متماسكة، وتطوير جيد وتلقائي للأحداث، وتصعيد طبيعي ومتنام للصراع فيها لبلوغ العقدة ومن ثم لحظة التنوير دونما تكلف أو افتعال أو اعتســـاف ولا غرو، فقد حذق قاصنا الفنان المبدع هذا الفـــن، وارتقـــى بـــه إلى درجات سامقة بما أبدع من أقاصيص، وأخرج من مجاميع شهد لها، وشهد له فيها كثير من النقاد والدارسين الذين اســـتحوذت علـــى إعجابهم وتقبلوها بقبول حسن .. ومن قراءتنا لقصص هذه المجموعة تبين لنا حرصه الشديد على توفير الحبكة الجيدة المتماسكة واستوائها وسلاسة تطور الأحداث فيها وتصعيد الصراع الدائر بين الشخوص وما يسوده من عفوية وتلقائية خصوصا تلك اللحظات التي كانت تشهد التعقيد وصولا إلى لحظة التنوير فيها والتي كان يتوافر فيهـــا قدر ظاهر من التلقائية والعفوية .. يجد القارئ كل ذلك بوضـــوح في غالبية قصص المجموعة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر قصـــة "الدار بوضع اليد"، حيث كانت وقفته الأولى مع البطل "الأســـتاذ

حسني" وهو عائد إلى القرية التي لم تكن مسالمة معه في يـــوم مـــن الأيام .. وفي ذلك إشارة بالغة إلى ما سيأتي من أحداث تجسد حالة الشقاق الناشبة بين البطل والقرية وبعض الشخوص الذين يـــرتبط بهم، وما سيأتي من أحداث، وتشهد من تصعيد وتطوير سواء منها ما كان يتصل بالموضوع الرئيس لها وهو التنازل عن نصيبه في البيت لشقيقته سميرة راضيا أو كارهاً، وما كان يتداخل فيها من أحـــداث منها مثلا مرض ابنته وما أورثه من قلق وألم وعناء .. وهـــي آلام نفسية مبرحة جعلته يجأر بمثل هذه العبارة: "كم تعبت يا حسني من الساقية التي تدور فيها كالثور!".

وقوله : " هذه أول مرة في قرية السلام يخرج الرجل من دار أبيه لتقيم فيها البنت"!

وقوله مخاطبا الأصفر: أنت يا حاج محروس تريـــد أن تقتلـــع جذوري من السلام!" وقوله:

"لتتذكر دائما أنك أنت الذي خلعتني من القرية!"

ثم تأمل النهاية التي آلت إليها أحداث القصة والـــتي حملتـــها عبارة "وحاولت أن تنام" التي جاءت في أعقاب كل هذه الأحداث المتلاحقة بكل ما تثيره من آلام وأوجاع نفسية تطرد النوم وتنفـــي الكرى عن الأجفان ، ولا ينسرب منه رسيس إلى النفس المأزومة!

وليست هذه القصة هي الفريدة من قصص المجموعة التي حظيت بمثل هذه الحبكة الدقيقة المتماسكة والتطوير التلقائي للأحداث والعقدة الطبيعية المجردة من الافتعال والاعتساف والتكلف والقدرة الفائقة على تأزيم المواقف وتشكيل العقدة وصولا إلى لحظة التنوير العفوية المناسبة، بل لعلنا لا نجاوز الحد إذا ما زعمنا أن كل ذلك يمكن أن يلقانا بوضوح وجلاء في غالبية قصص المجموعة منها مثلا " نوال تقرأ الحقول "/3 ، و" رباب " /5 ، و" حزن لا يموت "/6 ، و"زيارة" /7، و" وجه آخر للفجيعة " /8 ، و" ظمأ " /10، و" قبل السقوط "/13، و" ليلة هند\ الأخيرة"/14، و" البنات .. البنات "/ 16..حيث استوت فيها الحبكة الدقيقة استواء طبيعيا ورائعا، وتجسد حرص القاص على تطوير الأحداث فيها تطويرا تلقائيا وعفويا .. ولو مضينا نستعرض حركية الأحداث في هذه القصص، ونستقصي ملامح الحبكة فيها لطال الأمر، ولتجاوزنا منهج الدراسة وغاياتها مما يجعلنا نكتفي ببعض النماذج الكاشفة والدالة على هذه الميزة أو الخاصية، وكذلك ببعض النماذج الدالة على أنماط الحبكة في قصص المجموعة .. ومن أبرزها ما جسدته قصته الثانية "ما أجملها"، والتي دارت في فلك القصة الأولى من حيث ارتباطها بجو القرية وموقف البطل منها، وما يثور في نفسه من أحاسيس ومشاعر تجسد الانتماء العميق لها والتجذر في رحمها حتى

لو كانت القرية تشكل للبطل هما نفسيا وقلقا بالغا برغم اختلاف الدوافع والأسباب والظروف بين بطلي القصتين كما رأينا .. فقد حرم بطل "ما أجملها" من القرية تحت وطأة كراهية زوجته لها، ولكنه سرعان ما أعاد علاقته بها عقب وفاة زوجته، وراح يمارس كافة العادات التي نسيها أو أنسته إياها زوجته على مدى ثمانية وعشرين سنة سلختها من عمره .. بل إنه بدأ يفكر بشكل جديّ في البحث عن امرأة تنجب له الوريث الذي يحمل اسم العائلة، والذي حرمته منه زوجته .. وهنا تبدأ مرحلة جديدة من تطوير الأحداث والحبكة التي انتهت نهاية درامية أسيانة لا تخلو من تلقائية وطبيعية .. بيد أن القارئ يفاجأ وهو يقرا العبارة الأخيرة منها لما سادها من تداخل بالغ حيث يقول: "عثرت رجله .. فوقع أمامها على الأرض .. وتعجب عندما وجد أخته "أم العز" تمسك به محاولة إقالته من عثرته!".

وواضح أنها عبارة فجرت العقدة في القصة وألحقت بتلقائيتها السلسة الممتعة شروخا بالغة تستدعي تفسيرا أو كشفا لما خالطها من غموض وغرابة وانحراف عن سياق الأحداث .. ذلك أن المتوقع من سياق الحدث والمنظور بعد أن عثرت رجل البطل وسقط على الأرض أن تكون "وردة" المضيفة له والتي أجرى معها كل ذلك الحديث وسرد تلك الذكريات، وقص من أمرها الماضي والحاضر

شيئا كثيرا، أن تكون هي التي تقيله من عثرته وتمسك بيده وليست "أم العز" التي لم يرد لها ذكر في هذه المرحلة من القصة .. وحتى لو أن ذلك حدث بعد أن أفاق من غيبوبة طويلة نجمت عن عثرته، فقد كان من المنظور المتوقع أن تكون "وردة" موجودة مع "أم العز" في المستشفى للاطمئنان على سلامته من هذه العثرة بعد أن يفيــق، إلا أن .... أما أن يجد أخته "أم العز" هي التي تقف أمامه وتحــاول أن تقيله من عثرته، وتختفي "وردة" عندئذ؛ فذلك يتطلــب توضــيحا وتتميما لحركية الحدث وتعليلا منطقيا معقولا، كأن تكون "وردة" استدعت "أم العز" عند هذه الحادثة لتساعدها، أو أن تكــون "أم العز" كانت قد لحقت به عند "وردة "للاطمئنان عليه، أو لغير ذلك من أسباب ــ علما بأنه لم يكشف أو يشر إلى نوع مــن العلاقــة كانت بينهما آنفا وإن كانتا تقيمان في مكان واحد "القريــة" ــــ فصادفت عثرته وصولها فأمسكت به قبل أن يفيق من غيبوبته الــتي تتطلب تفسيرا آخر لتحديد حركية الحدث والوقوف علــى نهايــة الحبكة .. وهكذا جاءت الحبكة في نهاية القصة تنطوي على قــدر ظاهر من التداخل قد يدفعنا إلى الظن بأن "أم العز" كانت تراقــب تحركاته عند زيارته تلك التي توقفــت في بيــت "وردة"، وســواء استدعتها وردة أم جاءت من تلقاء نفسها ليرصدها القاص وهــي تمسك بيده وتحاول أن تقيله من عثرته ..

ومرة أخرى وجدنا القاص الفاضل يحرص على رصد مراحل التطور في أحداث القصة وشخوصها لتحقق الفكرة التي سعى إليها، أو القضية التي طرحها على نحو ما نجد في القصة الرابعة "أزمة مخرج"؛ حيث تطورت الشخصيتان الرئيستان فيها "المخرج والمؤلف" : فقد كانت لهما في البداية نظرة واحدة أو رأي واحد يقوم على الرفض والتمرد ونقد الواقع السياسي المتردي بعد أن ذُبحا بسكين الهزيمة .. ثم لم تلبث أن تبدلت المواقف فصار المخرج يقدم متطلبات السوق في المسرح التجاري ومسّرّح الدولة "مبررا ذلك بدعم الدولة له وابتعاثه لدراسة الإخراج في موسكو على يد أشهر المخرجين .. أما الشاعر المسرحي الذي كان يتبنى موقف الرفض والتمرد، فقد هبت عليه رياح التغيير، واستحوذت عليه السلطة وصار من شعرائها النافخين في بوقها، "فقد صار شاعرا مشهوراً، وقدم له المسرح القومي ثلاث مسرحيات شعرية، وصار له عمود يومي في واحدة من أكبر الصحف انتشارا"!

على أن هذه الشهرة لم تُنسه صديقه القديم؛ بل لعله كان يريد أن يتحسس مواقفه السياسية وهل ظلت تسير في ركب الدولة أم أنها رجعت إلى عهد الرفض والتمرد القديم ؟ ويبدو أن أمنيته القديمة بأن يخرج له مسرحية ما زالت ترن أصداؤها في أذنيه، فهاتفه ليستطلع رأيه في هذه الرغبة، ولكنه لم يجده، بل وجد شخصا آخر

يتبنى موقف الرفض محتجا بانتمائه إلى القرية "الأرض الطيبة وما يتحذر فيها من مظاهر الإيمان مما فوّت عليه فرصة إخراج مسرحيته الجديدة المسيّسة، وراح يكيل له سيلا من التهم التي قصد من ورائها إثارته واستفزازه ليكر راجعا إلى تلك المبادئ العقيمة والقيم العفنة التي لُقّنها، أو فرضت عليه في مرحلة من مراحل حياته الفكرية والثقافية والاجتماعية ..

على أن أهم ما يلفت النظر في بعض قصص المجموعة مما يفتت الحبكة فيها حرصه على رصد الحدث وتطويره من خلال الشخوص على نحو ما نجد في القصة الثانية عشرة "امرأة وعصافير"؛ فقد تناول أحداثها من خلال شخوصها الأربعة مبتدئا بالرسام "أحمد" ليرصده من خلال علاقة الحب العميقة ما بينه وبين "مريم"، والتي صورها في كثير جدا من لوحاته في هذه المرحلة، أو مرحلة الزواج الأول "التي سبقت طلاقه إياها عند سفره إلى الجزائر لتتزوج من "سعيد نعمان" خوفا من الفتنة كما تقول .. ثم يرصده القاص بعد عودته إليها ليتزوجها بعد أن طلقها سعيد .. ولكنه لم يستطع أن ينسى أو يغفر لها هذه الخطيئة — زواجها من سعيد — وظلت آثار هذه المرحلة تؤرقه وتمزق نفسه المعقدة وتثير أحقاده السوداء التي بلغت حد التفكير في قتلها والذي أرجأه إلى حين عودته من بيروت التي شارك في أحد معارضها .. ثم كانت له وقفة عند الزوج الآخر "سعيد

نعمان" ليقص علينا قصته أو دوره في أحداث القصة الكبرى، وأطرافا من سيرته الشخصية وصفاته، ثم ندمه البالغ على تسرعه في طلاق مريم دونما سبب معقول لتعود مرة أخرى إلى أحمد .. وفي علاقة سعيد بمريم يتجسد الحب الصادق العميق، كما يتجسد الخوف الشديد على مصير مريم وما يمكن أن يلحق بها أحمد من أذى لما كان يعاني منه من اضطرابات نفسية حادة قد تدفعه في نوبة جنون إلى قتلها ..

ثم يقف القاص عند الشخصية الثالثة وهي "سعاد" أخت مريم مركزا على موقفها الرافض لزواج مريم من أحمد، وعجبها من استمرار حبها له برغم ما يستغرقه من قبح ودمامة وسوء خلق .. وتمضي مصورة آلام شقيقتها مريم ومعاناتها البالغة وتعاستها الدائمة وما تخلفه من آلام نفسية مبرحة ..

ثم كانت الوقفة الأخيرة مع مريم الحائرة والمترددة بين الزوجين "أحمد وسعيد"، وتعيش معهما بكل حب برغم تناقضهما الشديد .. ويرصدها القاص في غرفة نومها بعد سفر زوجها أحمد لتبدأ رحلتها مع العصافير التي تتقافز فرحة سعيدة، وتملأ فضاء الغرفة بهذه السعادة الغامرة والتي كان الغراب يترصدها ليفتك بها .. وواضح أن العصافير هنا جاء بها القاص لتجسد حالة السعادة التي كانت تجتاح نفسية مريم، أو رمزا شديد الإيحاء لهذه السعادة التي كانت

تنتظرها مع أحمد في هذه المرحلة الثانية .. كما جاء الغراب ليجسد شعور الحزن والمرارة والألم لكونه رمزا للنهاية التعيسة التي توشك أن تتردى فيها تجسيدا لحالة القلق النفسي والخوف التي أحدثها موقف أحمد الذي لم يغفر لها زواجها من سعيد، وتهديدها بالقتل برغم احتمالها الكبير للآلام التي سببها لها في هذه المرحلة التعيسة!

والمتأمل في حبكة هذه القصة الرباعية الأبعاد يجد السرد يسود الأقسام الثلاثة الأولى الخاصة بأحمد وسعيد وسعاد؛ وهو سرد يتضمن أطرافا من سيرهم الذاتية ومواقفهم المتنوعة من مريم .. ثم تبدأ حركة الحبكة وتطوير الأحداث وتطوير الحالة النفسية الخاصة بمريم عبر رمزية العصافير والغراب التي ملأت جو الغرفة وأخذت تجتاحها بكل ما كانت تجسده من أحاسيس متباينة تصطرع في نفسها، ثم تأتي لحظة التنوير عبر سلوكيات العصافير التي ترفض موقف مريم وإصرارها على مواصلة علاقتها بأحمد من خلال الاستمرار في ترديد أغنية فايزة أحمد: " يمّه القمر ع الباب" حيث اختفى ظل الغراب مؤقتا .. والعصافير مدت مناقيرها .. أخذت تنقر وجهي .. تغلق المسجل لأستكمل سماع أغنيتها"!

وواضح أن القاص أبدع في تصوير هذه اللحظة الحاسمة من ا [illegible]كة التي جاءت مجسدة لحالتها النفسية التي لم ترق للعصافير بما يسو[illegible]ا من سلبية فاقعة دونما مبرر معقول أو مناسب!

كذلك نجد من مظاهر الحبكة في المجموعة ما يتعلق بظـــاهرة "الاسترجاع" أو استعادة بعض الأحداث والتي حرص عليها القاص بشكل لافت ومتميز في بعض قصصه من مثل "حزن لا يموت"، 6/ ، و" عرض موجز لموت زرقاء اليمامة " 9/ ..

ومن مظاهر الحبكة تقسيم القصة إلى أقسام متعددة أو حلقات يطرح في كل منها مرحلة من مراحل الحدث والتي تعتمـــد منـــهج الذكريات المشتتة وسرد الأحداث على غير ما نظام أو تنسيق يعتمد الحركة التاريخية لها على نحو ما نجد في قصص "حزن لا يموت" 6/ والتي جاءت في تسع حلقات، وكانت أطول قصـــص المجموعـــة، وقصة " رباب " 5/ التي جاءت في ست حلقات، وقصـــة "امـــرأة وعصافير"12/ التي جاءت في أربع حلقات بحســـب شخوصـــها الأربعة كما رأينا..

أما بقية القصص الثلاث عشرة فقد جاءت خالية من التقسيم ..

وواضح أن قارئ المجموعة يقف على ظاهرة متميـــزة تتعلـــق بأحجام القصص التي اشتملت عليها ، فقد تفاوتت قصص المجموعة في الحجم تفاوتا ظاهرا حيث جاءت بعض القصص طويلة استغرقت صحفا كثيرة من مثل قصصـــه 1 ، 4 ، 7 ، 9 ، 14 .. كمـــا جاءت بعض القصص محدودة المساحة من مثل 2 ، 11 ، 10 ، 6

.. واستغرقت بعض القصص مساحات أقل من سابقتها وهي 3 ، 13 ، 15 .. أما أقصر قصص المجموعة فكانت الثامنة "وجه آخر للفجيعة".

وذلك لأنها اهتمت برصد الحدث منذ لحظة المواجهة بين الأم والأب وتحذيره من مغبة سياسة التقتير والبخل التي يمارسها بحق أبنائه .. ثم قفز القاص إلى لحظة موت الأب ليرصد موقف الأبناء منه وهو ما أشارت إليه الأم وحذرت منه الأب، حيث قاطع الأبناء مراسيم الجنازة ولم يحرصوا على المشاركة في تشييع الأب أو حتى التعرف على موضع دفنه .. وهكذا جاءت القصة لترصد ومضة محدودة مجردة من التفاصيل والأحداث فضلا عن الاستطراد والتقسيم إلى حلقات كما في بعض قصص المجموعة كما رأينا لتحقق نصا قصصيا فائقا ..

ـ البنية اللغوية في المجموعة وتقنيات السرد والحوار:

ـ الحوار:

تمتاز مجموعة "الدار بوضع اليد" ببنية لغوية جيدة بمختلف مستوياتها: مستوى السرد الذي حكم مسيرة الأحداث فيها سواء في ذلك ما كان يأتي على لسان الراوي المتكلم، وما كان يأتي على لسان الغائب أو المخاطب على نحو ما رأينا آنفا .. أم كان على مستوى الحوار الذي استخدمه القاص بشكل لافت ومتميز في

جوانب كثيرة من قصصه، والذي كان يديره بين شخوصها، والذي احتل مساحة واسعة منها تتجلى لأول نظرة فيها، ولا تكاد تجد قصة منها خلت من بعض الجمل الحوارية التي حرص عليها القاص قلت أو كثرت كثرة كادت تحيلها إلى لوحات مسرحية أو تمثيلية .. وسنلتقط بعض الشواهد المحدودة لهذه الظاهرة اللغوية المتميزة تكشف عن منهج القاص الفاضل وأسلوبه في استخدام الحوار في قصص المجموعة ..

ــ اقرأ هذا المشهد الحواري من قصة "رباب" /5:

صرخت ذات مرة:

ــ رباب لا تناسب مساكن علب الصفيح!

ــ ضحكت: اقترحي اسما آخر.

قالت وعيناها تبرقان بوميض غريب:

ــ عبلــــة!

ضحكت من كل قلبي وأنا أردد مستغربا:

ــ عبلــــة؟!

ــ أجل!

قلت مبتسما:

ــ امسحي عبد الستار.

وهي تجاريني:

ـــ بم أناديك؟

ـــ عنتـــــرة!

وفي غرفة التحقيق في مخفر الشرطة دار هذا الحوار بين البطل "عنترة" وضابط التحقيق:

ـــ ماذا تعرف عن رباب؟

ـــ شاعرة من قريتي.

ـــ ماذا تحفظ من أشعارها؟

ـــ أحفظها وأعرف خرائطها؛ لكني لا أحفظ أشعارها.

ـــ أغانيها مسجلة عندنا؛ فلماذا تنفي معرفتك بأغانيها؟

ـــ لماذا تسألونني إذن؟

ـــ إنها تهاجم الجميع في أغان ثورية بذيئة.

ـــ إنها تغني للحياة وللمستقبل .. ولم أسمعها تهاجم أحدا.

ـــ من الذي قتلها؟

ـــ لم يقتلها أحد .. لأن الجميع يحبها .. حـــتى الأشـــجار والعصافير!"

ثم اقرأ هذه الحوارية التي دارت بين أحمد ومـــريم في "امـــرأة وعصافير " /12:

ـــ طلبت الطلاق منه رغم أنه كان ودودا معـــي .. لم يـــؤذ سمعي بكلمة واحدة طوال زواجنا سبعة عوام!

ـــ إذن لماذا تزوجته في البداية؟

ـــ لأنك طلقتني وذهبت إلى الجزائر وأنا ابنة خمس وعشرين سنة .. وأصررت على ألا تعود من الجزائر إلا بعد عشرة أعـــوام، فتزوجته خوفا من الفتنة!

ـــ ولماذا عدت لي بعد عودتي؟

قالت وهي تتنهد:

ـــ لأنني للأسف أحبك!

تنهـــــدتَ:

ـــ لا أتصور ذلك!

أضافت وهي تنظر إلى الناحية الأخرى .. حيث صورتها التي رسمتُها بريشتي وفازت بجوائز في عدة معارض:

ـــ هل تنسى حبنا القديم، وزواجنا ثلاثة أعوام .. هل تنسى أنك أبو محمود؟؟".

كذلك جاءت قصة "عندما زارني المتنبي" /11لوحة حواريـــة كاملة أدارها القاص بين شخصيتي القصة "الراوي والشاعر الدعيّ" الذي انتحل اسم المتنبي، وادعى عبقريته الشعرية المتميزة أيضا .. ولا أُرانا بحاجة إلى التقاط جزء منها ..

ثم قصة "ليلة هند الأخيرة "/14 التي احتوت مشاهد حوارية جميلة أدارها القاص بين البطلة "هند" وعشيقها الوجودي ممدوح في

محاولة منها لتصحيح وضعها الاجتماعي معه، والتخلص من عفــن الوجودية الآسنة .. والتي قابلها باستخفاف عقب كل تلك السنين التي قضياها معا ينعمان بالوجودية الآثمة الفــاجرة .. ووراء ذلــك مشاهد حوارية أخرى كثيرة لا تخطئها العين بمجرد إلقــاء نظــرة عليها، ولا تستدعي سرد نماذج منها وراء النماذج التي ســردناها تدليلا على انتشار هذه الظاهرة اللغوية الفنية في قصص المجموعة ..

ـــ المونولوج الداخلي:

إذا كان الحوار فيما رأينا آنفا قد استحوذ على قسط ظــاهر من عناية القاص واهتمامه ببنية قصصه في هذه المجموعــة شــأنه في مختلف مجموعاته الأخرى، فقد تجلت عناية القاص وحرصه علــى استخدام وتوظيف أسلوب آخر وهو يروي بعض قصصه وحكاياته في المجموعة وهو أسلوب "**المونولوج الداخلي**"، حيث كان يُخلــي المجال لأبطاله بين حين وحين ليكشفوا ما تنطوي عليه نفوســهم، وتختزنه أعماقهم وتموج بها خواطرهم، لتستحيل تلك الجوانــب إلى اعترافات أو ما يشبه الاعترافات .. نجد ذلك مثلا في قصة "نــوال تقرأ الحقول" /3 التي كانت تعاني من الوحدة القاتلة والإحســاس بالجوع الجنسي في غيبة الزوج التي تطول جدا، وكانت تتــوق إلى عودته ليحقق لها شيئا كثيرا من التوازن النفسي المفقود ..

وتشاطر هذه القصة قصة أخرى من التغريبة اليمانية للقاص الفنان " ظمأ "/10 والتي جاءت كذلك لوحة ماتعة من لوحات المونولوج الداخلي .. ومنها أيضا قصة "قبل السقوط" /13 التي جاءت كلها مكاشفة صريحة فاضت بها نفس البطلة التي عرضها زوجها لامتحان قاس وعنيف بجهالته وغبائه وغفلته وسوء تقديره للظروف وهو يهيئ لها فرصة السقوط في الرذيلة مع أخيه الطالب الجامعي الذي أصر على أن يشاركهم في السكنى في الشقة .. وقد حرص القاص على أن يسود المونولوج الداخلي مسيرة هذه القصة شأنها في ذلك شأن غيرها من قصصه الآنفة الذكر..

كذلك تلقانا فقرات كثيرة هنا وهناك في بعض قصص المجموعة تجسد هذه الظاهرة الفنية ومنها على سبيل المثال ما جاء في قصته الأولى "الدار بوضع اليد" عند لقاء حسني بمحروس الأصفر حيث التقط هذا المشهد الذي يصور حالة ابنته المشلولة وتأثيرها على نفسه:

"بنتك سمية ذات الأربعة عشر شهرا مريضة من خمسة أيام، كانت كالوردة تملأ حياتك بهجة، لكن الساقين كفتا عن الحركة .. والدكتور جودة عمار طبيب الأعصاب الشهير بالزقازيق قال لك أمس في جرأة يحسد عليها: لا أمل في الشفاء! ولكن من الممكن أن يأتي العلاج الطبيعي معها ببعض الثمار، فتستطيع أن تتحرك على

كرسي ذي عجلات، وتخدم نفسها بعد مدة من العلاج قد تطول وقد تقصر! قلتّ في حزن: هل ستعيش سمية عرجاء مشلولة؟".

ثم اقرأ هذا المشهد الذي جاء في القصة نفسها والذي يحدد برنامج حياته اليومي:

"يا كم تعبت يا حسني من الساقية التي تدور فيها كالثور! تخرج كل صباح في السابعة إلا ربعا من ديرب نجم لتذهب إلى مدرستك في الزقازيق التي تبعد عشرين كيلا عن ديرب نجم وتدريسك في الزقازيق حرمك من الدروس الخصوصية في مادة الرياضيات .. فلن تشعر بوفرة أبدا رغم أنك مدرس من أربعة أعوام .. الثلاجة عطلانة من أسبوعين، والبنت مريضة .. لا شك أنك ستستدين خمسة عشر جنيها لتكون معك وأنت ذاهب للطبيب غدا .. رحماك يا رب!".

ـ الاسترفاد ـ التناص:

هذه هي الظاهرة الثالثة من ظواهر البنية اللغوية في المجموعة، والتي انتشرت بشكل لافت في كثير من قصص المجموعة لتشكل معلما رئيسا وظاهرا من معالم فن القصة عند قاصنا المبدع، حيث شاعت مظاهر الاسترفاد أو التناص شيوعا ملحوظا كما في قصته الرابعة "أزمة مخرج"، حيثُ تلقانا إشارات ثقافية تتعلق ببعض الشخصيات الصوفية المشهورة التي وظفها بعض الأدباء في أعمال

أدبية مشهورة وذائعة أمثال "رابعة العدوية" و"الحلاج"، والطريقة التي وظفها بها الشاعر صلاح عبد الصبور في مسرحية "مأساة الحلاج"، وصولا إلى طرح بعض القضايا والآراء التي تبناها الشاعر المسرحي في القصة "فاروق منير" صديق المخرج الذي رفضها وأعرض عن إخراجها مع أنها تعارض سياسة الدولة من خلال ما أشار إليه بـ "هامش الحرية المتاح" .. كما أنه أيضا يكرس قضية الازدواجية الفكرية لدى الأديب أو الفنان حيث يمكن أن يتعايش مع قناعاته الفكرية وعمله أو وظيفته حتى لو كانا متناقضين:

ـ "أنت مخرج تقدم نصا .. ما علاقة قناعاتك وفكرك بما تخرجه؟ ...

ـ أنا لست"بوتيكا" أو صاحب معرض للأفكار على خشبة المسرح!... إنما أنا مخرج له فكره!

ويقحم الشاعر صديقه المخرج في قضية أخرى خطيرة وهو يتهمه بالخوف والجبن من سطوة الأصوليين أصحاب السلاسل والجنازير .. ولكنه يبرر ذلك بما يستكن في نفسه من تدين فطري وانتماء إلى الأرض الطيبة التي ما تزال تشهد خطا أبيه الذي يصوم رمضان والستة البيض، ويتهجّد في أعماق الليل، ويصلي الفجر جماعة ويحج ويعتمر".

وفي قصة "رباب" /5 يلقانا الاسترفاد / التناص في الإسـقاط الذي طرحه القاص على بطلي القصة "ربـاب" و"عبـد السـتار" ليصبحا "عبلة وعنترة" بفعل الواقع الكئيب المثقل بالفقر والحرمـان والمرارة تجسيدا لفكرة الاستلاب التي كانت تسـتكن في أعمـاق نفسية "رباب"، وبخاصة بعد عجزها عن تحقيق أحلامهـا وتغـيير الواقع مما دفعها إلى الانسحاب من على مسرح الحلم تحت عجلات سيارة مجنونة اجتاحتهما فقضت على عبلة في الحال، وداهمت عنترة غيبوبة ما إن أفاق منها حتى بدأت مرحلة جديدة من معاناته الطويلة بسبب غياب رباب / عبلة!

وتبرز "نبوية" بطلة قصته السادسة "حزن لا يموت" وهي تتدثر مسوح جدتها الفرعونية القديمة "إيزيس"، وهو البطل "فارس" يستعير ثياب "أوزوريس" وينتظرها لتلم أشلاءه التي بعثرها أخوه "ست" في شتى بقاع الأرض لتعيد إليه الحياة من جديد .. ولكنها لا تجيء! ولم تفعل ما فعلته جدتها القديمة" إيزيس"!!

وتلقانا في القصة إشارة ثقافية أخرى تتعلق بجـبران الشـاعر والرسام المهجري في معرض المفاضلة بين الشعر والرسم اللذين كان البطل هنا يتقنهما إتقان جبران لهما مقررا حقيقة سبق الرسم للشعر في كهوف الإنسان الأول! كما وردت فيها إشـارة إلى أشـعار طاغور الشاعر الهندي المشهور! وإشارة أخرى إلى قصيدة "الحجـر

الصغير" لإيليا أبي ماضي باعتبارها أحد النصوص المقررة عليهم في المدرسة .. وإشارة أخرى إلى إحدى أغنيات فايزة أحمد التي كانت "نبوية" تغنيها له في مرحلة العشق الطفولي البائد! كما أشار فيها أيضا إلى الشاعر القديم "مالك بن الريب" المشهور برثاء نفسه ..

ووراء ذلك تلقانا إشارات ثقافية متنوعة أودعها القاص هذه القصة الرائعة ذاتها .. كما تلقانا إشارات ثقافية وفنية أخرى في جوانب من قصص المجموعة كإشارته إلى "المنفلوطي ومحمد عبد الحليم عبد الله وصلاح جاهين وعبد الحليم حافظ وعرابي ومصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول والنحاس وعبد الناصر والسادات وغيرهم. .."، كما جاء الاسترفاد في عنوان إحدى قصصه /9 "عرض موجز لموت زرقاء اليمامة" وإن لم تأت الإشارة إليها إلا في آخر كلماتها..

وفي قصة " المتنبي"/11 إشارة فيما وراء المتنبي إلى الشاعر اللبناني خليل حاوي وسبب انتحاره عقب احتياح إسرائيل للبنان سنة 82 .. وتقاعس العرب عن إنقاذها لانشغالهم بكأس العالم .. وفي القصة 12 "امرأة وعصافير" يسرد القاص نصا للأديب الروسي "تشيكوف" في وصف بطلته "ماشا" والذي استعارته سعاد لوصف شقيقتها مريم .. وقد وقفنا عنده في موضع سابق فلا نعيده هنا .. أما قصة "ليلة هند الأخيرة "/14 فقد أقامها القاص على نقد المبدأ

الوجودي أو "الوجودية" مما فرض الإشارة إلى أبرز فلاسفتها "جان بول سارتر" وعشيقته "سيمون دو بوفوار" اللذين اتخذهما بطلاهـا "هند وممدوح" مثلين لهما وهما يغرقان في مستنقع الوجودية الآسن! وفي القصة السادسة عشرة الأخيرة "البنات .. البنـات" يستدعي صورة سعاد حسني وهي تغني أغنيتها المشهورة التي استعار عنوانهـا لقصته .. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الشاعر البحراني الشعبي المشهور "عبد الرحمن رفيع" له أغنية رائعة تخذت هذا العنوان ذاته يعدد فيها صفات هذا القطاع المهم من قطاعات المجتمع ومكانتهن ودورهن في حياة الناس!!

كذلك تبدى اهتمام القاص وحرصه بشكل لافت ومتميز على سرد كثير من الإشارات السياسية التي التقطها من الواقع السياسي المحطوم .. وقد عرضنا لهذا الجانب في موضع آخر من الدراسة فلا نعيده هنا ..

وهكذا جاءت الإشارات الثقافية والفكرية والأدبية والفنية التي وظفها القاص في كثير من قصص مجموعة "الدار بوضع اليد"، وأحسن توظيفها لتلقي ظلالا لطيفة وإيحاءات جميلة تسند أفكاره ومقاصده المتنوعة التي بثها فيها بدرجة فائقة من الوعي والحرفية والقدرة على الإسقاط والترميز وتوظيف الثقافة!

ـ جماليات الأسلوب أو اللغة الشاعرة في المجموعة:

لعل الإشارة إلى هذا الجانب أو الموضوع في الدراسة يعدّ من نافلة القول، ولا يستدعي توقفا خاصا تطرح فيه بعض النقول والشواهد أو النماذج المختارة والشذرات الدالة على هذه الجماليات والتي توافر لها قسط ضخم من الجمال والإبداع خصوصا في جانب الصياغة الأدبية الشاعرة .. ولا غرو، فالمؤلف يمتاز بقدر هائل من مقومات الإبداع وجماليات اللغة التي انتشرت في إنتاجه الأدبي الفني سواء أكان شعرا أم قصة أم مسرحية .. ويستطيع القارئ أن يجد كل ذلك بيسر وسهولة وبوضوح وجلاء في كل ما أبدعته عبقرية هذا الأديب المتمكن المتميز!!

ونودّ في هذا الجانب من الدراسة أن نعرض بعض النماذج والشواهد الدالة على تميز القاص وإبداعه اللغوي، وما وفر لها من جماليات التعبير ورشاقة الأسلوب وثراء الصور الموحية، مما زخرت به هاتيك القصص .. وسأكتفي بسرد هذه القطوف مجردة عن أي تعليق لغنائها عن ذلك.

اقرأ هذا المقطع من قصة "حزن لا يموت":

"لأيام حنينك التي فارقتها الشمس اللاهبة سأودع ساعات الدعة، وسأكتب أحرفي المجنونة على بابك، وأسألك: لِمَ لَمْ تسمعي صدى نداءاتي الأخيرة .. ودعائي أن يجعلك الله من نصيبي؟

كم بدت النجوم قصيّة حينما صممت على الرحيل! هل أقول: وتحطمت آمالي؟! ... هاهي أشرعتك تبحر متعجلة نحو البعيد .. المجهول، وبقسوة لم أتخيلها .. لماذا رحلت يا نبوية وتركت أشلاء فارس تبحث عنك كي تعيدي إليها الحياة كما فعلت جدتك إيزيس ذات يوم؟!

لماذا رحلت و لم تسمعي قصائدي المرهقة بالحزن، الحالمة — كقلبي — دواما بكلمة منك تعيد الحياة لهذه الجثة الساكنة؟!!
أطفأت بيديك شمعتي الساهرة!

أخذت أرضي وصفصافتي وعصافيري تحت جلدي، وقبعت مقنّعا بالفضاء الأبيض الفاتر في هذه المدينة الجميلة التي تستلقي في حضن البحر هاربة من أضلاع الصحراء!!

لم تعد لي أجنحة كي أحلق بها، و لم أعد أستظل بصفصافة، أو أشعّ في بهاء، و لم أعد أكتب شعراً، منذ تركت نبوية ، وغادرتني أحصنة شعري التي لا تصهل!!

قلت لي ذات مساء والشمس الغاربة تدفع شعاعا قانيا من خلف الغيوم ليسكب في قلبي الفزع على مشهد مأتم الجمال الوحشي: في مقلتيّ ضياء طفوليّ قديم ينبئ عن حرماني!

لماذا اختفت ملامح وجهك الطفولي اللامع خلف شرفة الغياب .. فمالي أبصرها ... حقل أنجم خرساء في سمائي المعتمة؟!

أتذكرين ريشتي التي رسمتك ذات مساء صاف على قبة السماء، وحثت خطاها القصيرة نحو مروحك السماوية .. يا ذات العينين العسليتين المثقلتين بالوحوم؟!

أيها الشعر .. يا جناح الطائر البحري المسافر إلى البعيد .. خذ شوقي إلى سريرها الغافي في مروج النور .. ورشّ أطيافا من نور وصلاة على هدبها الغافي!! إلخ

واقرأ هذه الفقرات الشعرية أو الشاعرة من قصة "رباب":

"قطعة السكر التي تذوب سريعا ـــ ولا تترك بعدها إلا الحرقة والمرارة ـــ تجربة أولى تشعل الجمر في ذاكرة المؤرق بغياب وعذابات!".

ومن قصة "زيارة اقرأ هذه الفقرة الدالة:

"رحلاتي تتوقف في شقته مرتين أسبوعيا حتى بعد أن مرت سنوات النضال بحلوها ومرها".

"نظر إليّ كأنما يكتشف للمرة الألف مناطق اللذة الرخامية التي يستعذبها الساقطون ... بعد أن أطال من قبل التأمل في أجزاء نساء أخريات لا تضاهيها حلاوة وتمردا!!".

ومن قصة "عرض موجز لموت زرقاء اليمامة" اقرأ هذه العبارات:

"رأى اليهود وهم يستحمون في القناة فلـــم يأبـــه، وقـــال: سنراهم يندحرون! ورأى الأريكة المريحة وهي تتهاوى تحت مقعدة السلطان الكهل، فلم يحفل، وقال: مصر ولاّدة"!

وفي قصة "قبل السقوط" قال: "لماذا ترجمني بأحجار كلماتك دائما وأنت معلق في سارية الضياء؟! دعني أمضغ وهمي .. وأرقص ميتة في عالم الأحياء! .. يا للخيبة، أنت لم تعرف إلا ظلمة الليل ، ولم تعش إلا بين الجماد والحُفَر .. ولم تر إلا الحجر الجامد الذي لم تستطع أن تفجر منه عيون الماء !!

وأكتفي بهذه الإشارات والنماذج المحدودة الدالة على جماليات اللغة التي كتب بها الأستاذ هذه القصص وأنا زعيم أن القارئ سيقع على نماذج كثيرة قد تندّ عن الحصر أجمل وأحلى وأوقع منـــها .. ومع أنني أجد كثيرا من الآذان الصاغية والقلـــوب الواعيـــة الـــتي تستزيدني وتستحثني على المضي في سرد أمثـــال هـــذه العبـــارات الرشيقة والنماذج الرائعة، إلا أنني أحس أن مواصـــلة الاستشـــهاد بنماذج أخرى قد يضر بنماذج كثيرة وراءها قد يفوتهـــا الحصـــر، وتتمرد على الإحصاء .. ولأنني إن أطعت هؤلاء ستحدني أســـرد عليهم كل تلك القصص ولا أبقي منها شيئا .. وكيف أبقي شـــيئا كتبه قاصنا المبدع بلغة شعرية آية في الجمال والإبداع، وغايـــة في الروعة والإمتاع؟! ولا يسعني هنا إلا أن أعتذر عن تقصـــيري في

تحقيق مثل هذه الرغبات، ولأتيح المجال لهم لقراءتها والاستمتاع بجماليات الأسلوب واللغة فيها وتذوقها!!

على أنني أودّ هنا أن أشير إلى أن القاص الشاعر الفنان في هذه المجموعة لم يكتف بمثل هذه اللغة الشعرية والأسلوب الشاعري الممتع الجميل، حيث أودع بعض قصصه لقطات شعرية ماتعة منها قوله:

كيف تكون الكلمة سيفا يهوي بالأعماق

كيف تكون الكلمة سهما؟!"

وقوله أيضاً:

"نحن وضعنا للعامة والغوغاء الترياق

في قالب دين يعتنقونه

في بضعة أبطال مهووسين

يعتقدون بمنزلة سامية لهمو!" (ق /4 "أزمة مخرج")

ثم اقرأ هذه الفقرة التي ادعى صاحبنا الراوي أنها من شعره هو وليست من شعر رباب التي لا تكتب شعرا ، يقول: (هذه المقطوعة مما يطلق عليه عند المحدثين "الشعر المنثور، أو قصيدة النثر، أو غير ذلك من التسميات)

رباب، يا من تقفين في آخر الطريق، وتنادين

لست وحدك هناك أيتها الحبيبة القديمة!

أنا أوقن أن بجانبي ألف نخلة ترتفع فوق وجع السنين الطويلة!

وتناجيني من خلال حزنها لغيابك!

الشطآن المراوغة تتراجع تحت قدميّ

وألف وردة تشتعل نارها في شراييني

فالرباب ما مات لحنها!" (ق/5 " رباب")

ونودّ أن نقف أخيرا عند عبارتين وردتا في المجموعة لنكشف عن شيء من أبعادهما اللغوية؛ أما الأولى فهي عبارة "التغريبة اليمانية" "التي جاءت في عنوان القصة الثالثة "نوال تقرأ الحقول"! فقد استخدم القاص الفاضل مصطلح "التغريبة" مضيفا إياه إلى "اليمانية"؛ وفي هذا الاستخدام نظر .. ذلك أن هذا المصطلح "التغريبة" ارتبط في التاريخ والأدب الشعبي بالقبيلة العربية "بني هلال" وهي من قبائل قيس عيلان بن مضر، وكانت تقطن في منطقة نجد منذ الأعصر الجاهلية القديمة .. ثم حدثت لهم في الأعصر الإسلامية ظروف نتيجة للقحط والصراعات القبلية دفعتهم إلى إرسال طليعة من فتيانهم يتحسسون لهم موارد الرزق فكانت "التغريبة" حيث ألقوا عصا الترحال في تونس بشمال أفريقيا .. وحدثت صراعات بين هذه القبيلة وبعض القبائل العربية هناك تناولتها السيرة الشعبية المشهورة بهذا الاسم "تغريبة بني هلال"، وأقام عليها أستاذنا الجليل الدكتور عبد الحميد يونس أستاذ الأدب

الشعبي بجامعة القاهرة دراسة تناولت هـــذه التغريبـــة في التـــاريخ والأدب الشعبي .. المهم أن هذا المصطلح أخذ منذ ذلـــك التـــاريخ مفهوما خاصا ومتميزا يتعلق بالوجهة التي مضى إليها الهلاليون والتي تقع في غرب الجزيرة العربية في إفريقيا .. وإذن فقد جاء الاســـم أو المصطلح من النسبة إلى جهة الغرب وما يرتبط بـــه مـــن غـــروب الشمس بعد رحلتها من الشرق، وما تبع ذلك من استقرار معـــنى الاغتراب والتغرب والغربة وسائر مشتقاتها .. أما قاصنا الفاضل هنا فقد هدف إلى أن يوظف المصطلح توظيفا جديدا متجردا عن الجهة الجغرافية الخاصة به يقوم على الاسترفاد أو الإسقاط على غربته عن وطنه وهجرته التي قام بها إلى اليمن التي جعلها "التغريبة اليمانيـــة"؛ علما بأن الوضع الجغرافي للقاص لكون إقامته في مصر التي تقـــع في الشمال، وتقع اليمن في الجنوب .. وهذا يعني أن رحلاته كانـــت تتجه إلى الجنوب لا الغرب، يفرض عليـــه تحويـــل المصـــطلح إلى "التجنيبية اليمنية" إذا صح المصطلح، وجـــاز التعـــبير، ولم نخضـــع للمصطلح القديم السائد!!

أما ما يمكن أن يجوّز هذا الاستخدام فهو ما شاع في المأثورات الثقافية والشعبية عبر ما يعرف بالتناص أو الاسترفاد أو الإســـقاط الفني الذي حقق له الشمول والقبول ..

أما العبارة الأخرى فهي "هامش الحرية المتاح" الـــتي وردت على لسان الشاعر المسرحي "فاروق منير" في القصة الرابعة "أزمـــة مخرج"! وهذه العبارة بالغة الإيحاءات، واسعة الدلالات، لا تكـــاد تحدها حدود، أو تقف دونها سدود .. بل إنها يمكن بعبارة مـــوجزة ومقتضبة أن تعني جماع وخلاصات السياســـة العامـــة والخاصـــة والداخلية والخارجية للدولة .. وهي التي تحكم سلوكيات وتصرفات الأفراد فيها على اختلاف مستوياتهم وطبقاتهم ، وتنوع مسؤولياتهم وأعبائهم، وهي التي يمكن أن تفسر ما يصدر عن الأفـــراد المشـــار إليهم آنفا من أقوال وتصريحات، وما يقومون بـــه مـــن أعبـــاء ، ويلتزمون به من سلوكيات على كافة المستويات! وهي قادرة على استيعاب كل ذلك وغيره مما لا يحيط به حصر!

وعلى هذه الشاكلة طوفنا في هذه الرحلة الماتعة مع الأديـــب الفنان المبدع الدكتور **حسين علي محمـــد** في إحـــدى مجموعاتـــه القصصية "الدار بوضع اليد" في محاولة متواضعة للكشف عن أطراف من جمالياتها الوفيرة وطاقاتها الإبداعية المتنوعة التي تستعصي علـــى الكشف فضلا عن الإحاطة والشمول، حيث وقفنا عنـــد الجانـــب الموضوعي فيها مستعرضين مختلف القضايا والأفكار والرؤى الـــتي نثرها وعالجها في قصصها، والتي ترددت ما بين الاتجاهات العاطفية الوجدانية والاجتماعية والسياسية وغيرها .. كما كانت لنا وقفات

أخرى مع الجماليات المتنوعة التي وفرها القاص لها بحذق ومهارة فائقين، لعل أبرزها ما كان يعاني منه بعض أبطاله من انسحاق وسلبية، وما كان يستعر في نفوس بعضهم من تمرد ورفض ..

كذلك وقفنا عند قضايا السرد والحبكة والحوار التي تجسد إبداع القاص وتفوقه في بناء أقاصيصه، فضلا عن مختلف الجماليات اللغوية والأسلوبية المتميزة التي انتشرت في كافة أرجاء المجموعة بشكل لافت ومتميز يشهد بإبداع القاص ومهارته وعبقريته!

ولا يسعنا في نهاية المطاف إلا أن نحمد للقاص المبدع ما جادت به قريحته متمنين له مزيدا من التوفيق والسداد ، ومزيدا من الإبداع في هذا المجال الفني الرائع، وفي مجالات الإبداع الأخرى التي يتفوق فيها، وله فيها باع طويل وقدم راسخة: الشعر والمسرح الشعري والبحوث والدراسات الأكاديمية الرصينة!

خليل أبو ذياب



*موقع «صباحات أدبية» ـــ 2006/2/13م

للفجيعة وجه آخر!

بقلم: مجدي محمود جعفر

قصة ومضة جديدة من قصص الدكتور حسين علي محمد، تعتمد بشكل رئيسي على الحوار، فللحوار هنا البطولة ويتراجع السرد في الخلفية.

القصة تبدأ بحوار قوي من الزوجة – ويبدو أن للزوجة في هذا النص سطوتها وقوتها ومنطقها الحياتي الصحيح – وبدت أكثر عقلانية وأكثر اتزانا ونضجا وفهما للحياة ومجرياتها وواجهت الزوج بالحقيقة المفجعة – حقيقة تقتيره وبخله وإمساكه – وليس هذا فحسب، بل تلقنه درسا تربويا في كيفية معاملة الأولاد في هذه السن وتحثه وتنصحه باتخاذهم أخوة له، وتذكره بأنه وحيد، والمثل يقول إن كبر ابنك (خاويه) 00 أي اجعله لك أخا.

الكاتب جعل للفجيعة وجهاً غير الوجه الظاهر، فكما هناك ظاهر هناك باطن، سطح وعمق، بالتأكيد لن يعدم المتلقي التحري والبحث عن الوجوه الظاهرة والمختفية للفجيعة.

السارد يتدخل ليدفع الحوار والحدث ويعمق الفعل الدرامي المستعر في حوار الزوجين فالنظرتان متباينتان مختلفتان وقد يكونان على طرفي نقيض ولكن هناك دائما ثمة روابط، ظاهرة وخفية أيضا، تجعل أحيانا [illegible] ممكنة رغم أن الظاهر يوحي باستحالتها، فكان من المفترض أن تنفصم عرى العلاقة بين الزوجين للتباين والاختلاف - ولكن رابطة الأولاد - والأمل الذي يحدو الزوجة في علاج الزوج بنصحه ألف مرة كما ورد في حوارها، جعلت الحياة ممكنة.

السارد يتدخل بجمل شاعرية، وهذا دأب الدكتور حسين علي محمد (جناح كلماته ينكسر عن التحليق!) ولهذه الجملة الشاعرية فعلها وسحرها، فأمام منطق الزوجة القوي ينكر منطقه وعاجز عن التحليق - يشعر بالضعف وبالانهزام، فيمتلئ قلبه بغضاً وكرها لها ويعد لها من القول أفحشه وأبغضه، ويكيل لها السباب وهذا طبع الضعيف وسمته، ليس الضعف الفكري وقلة الحيلة وحسب بل الضعف البدني.

مثل هذه الشخصية حتما تعاني من أمراض نفسية وبدنية، (وخرج الرذاذ من فمه يغطي وجهها، كأنه بصقة) - مثل هذه العبارة التي جاءت على لسان السارد من البداية تمهد للمتلقي فيما بعد قبول مرض الربو عنده - وهذا الرذاذ الذي يكوره مثل بصقة - تعبير نفسي عن حالة عجزه في صورة مادية ممثلة في البصقة.

ثمة إشارات عديدة ، ورموز صغيرة مثل النجوم تنير ليل النص - هذه الرموز الصغيرة تدور كلها في فلك الرمز العام الرئيس الذي يتسامى بالقصة فوق ربوة الواقع الجهم، القصة تحتاج إلى وقفات طويلة ، ولأستاذنا الشكر على قصصه التي تأسر عقولنا وقلوبنا.

....

*موقع «صباحات أدبية» ــ في 2006/3/4م

عرض موجز لموت زرقاء اليمامة

بقلم: الأخضر العربي

القصص الهادف:

هذه كتابة أدبية رائعة من حيث الصياغة اللغوية والأسلوب, يتعرض فيها د. حسين علي محمد للقضية الوطنية العربيـــة: دور التعليم، والهزيمة، وفجور طبقة (الهباشين)، واختفاء الطبقة الوسطى، وضياع القيم: «كنت تشيرين إلى اختفاء الطبقة الوسطى بعد مجيء أثرياء الحرب الذين لا يملكون قيما, أو إرادة لنهضة البلد».

وكم كان بليغا حين يقول مخاطبا حياة: «هل كنت تخـــافين أن ترديك الكلمات الجاهلة الفاجرة في بركة من الأسى الدائم...» لأنه يقصد بالكلمات أجهزة الإعلام التي أخذت تبرر لنا الانبطـــاح ـ ةحة وفجور.

وأنا أقول: هكذا تكون القصة الجيدة.

....

دنيا الوطن ــ في 2006/3/18م

رباب

د. محمد حسن السمان

الأخ الدكتور **حسين علي محمد**:

لا أعرف لماذا أجدني مشدودا دون وعي مني لأكتب لك, هذه هي المرة الأولى التي اقرأ فيها قصة أو قطعة أدبية بمثل هذه القوة, جمالا وفكرا وأدوات أدبية.

وسأكتب دوما بفخر, أنني قرأت ذات يوم أعمالاً, للأديب الكبير الدكتور **حسين علي محمد**.

تقبل محبتي وإعجابي الكبيرين بك أيها الأديب الكبير.

....

*منتدى "الواحة" ـــ في 2006/2/14م.

ليلة هند الأخيرة

فكري داود

"نظرة حزينة تبدو في عيْنيْها، ترنو إلى ممدوح بحقد وكراهية .. يستبقها الحزن في ولوج دوائر مغلقة".

هكذا تبدأ قصة المبدع د. حسين علي محمد.

عبر خطوط درامية متوازية يأخذنا، عبر شخوصه المحملة بسمات متباينة، وأفكار أكثر تباينا، ومناهج حياة يصعب أن تلتقي، حتى يقودنا ـــ الكاتب ـــ خطوة خطوة، إلى نهاية خطط لها منذ البداية، تلك النهاية التي تبدو صادمة للبعض، فيما لا تبدو كذلك لأفكار وفلسفة الكاتب القيمية.

مع الوضع في الاعتبار، أنه يمكن أن يكون (للنص الأدبي عدة قراءات جمالية، تلك التي تسمى بالقراءة الأولية، منها ما يعلق بذاكرة القارئ، من صور أو شخصيات..، أو أمكنة، أو حالات أو لغة، أو حوار ..أو .. أو.." (1).

***

هند

وعائشة (أختان)

ممدوح (الذي يعيش مع هند كزوجين دون عقد)

وآخرون لا دور لهم كولدي عائشة...

وآخرون تقلدوا أدوارا تاريخية وفلسفية أو أدبية، كسارتر، وسيمون دي بفوار، اللّذَين يعدان من أسباب نكبة هند، فهما — كما أقنعها ممدوح — القدوة والمثل، أليسا من يعيشان معا ويتحولان، دون زواج أو وثائق؟

ونظرتهما معا كانت لهذين النموذجين توشك على الإيمان بأفكارهما الوجودية، والأدبية، يقول لها:

— ألسنا مثقفين كبيرين مثلهما يا هند، ونقرأ أعمالهما بلذة وجنون، وكنا ممّن حضر محاضراتهما حينما كنا ندرس أنا وأنت في باريس في أوائل الستينيات؟!

وعليه لا نجد إلا طرح مزيد من التساؤلات، تضاف إلى تساؤلات الكاتب، منها:

كيف يتسنى لمثليهما — هند وممدوح — أن يتخذا مثل تلك الحياة؟

وأسباب تساؤلنا مشروعة، فكلاهما متعلم تعليما جامعيـــا أو فوق الجامعي، وكلاهما يعتنق دينا لا يرضى بغير الـــزواج طريقـــا شرعيا، لارتباط الرجل بالمرأة، وهما لا تنقصهما معرفة ذلك...

لا يتركنا الكاتب دون جواب:

فـ ''جماعات التمرد التي سارت وراء سارتر كالقطيع''

ستة وثلاثون عاما عمرها الآن، ولا يـــزال ممـــدوح ينعتـــها بالصغر، وعدم الفهم:

'' أنتِ لست أكثر من طفلة صغيرة لم تفهمي الوجودية''.

لم يعد طلبها يتوقف، ليذهبا معـــا إلى المـــأذون، كمحاولـــة لتصحيح الأوضاع، كما تعتقد هي، ذلك بعد أن قضيا معا ثـــلاث عشرة عاما، لكنه لا يريد، رغم كفره وهي معه بسارتر وتعاليمه...

'' .. لقد كفرت بالوجودية وكفرت بماركس، لكن كفـــرك بهما جاء متأخراً ..''

لم تقو يومها أن تخبر أخيها بقصة ارتباطهما دون زواج، هـــا هي أرملته الآن ـــ على ما يبدو ـــ ، لازالت تعيش هناك بالقريـــة، حيث تتمنى أن تعود هند...

كانت تريد العودة إلى البيت الواسع، حيث أرملـــة أخيهـــا، وكذلك أختها عائشة فرع شجرتها الآخر، والتي عاشت كما يعيش

الأسوياء، فحصلت على بكالوريوس التجارة، وتزوجت وأنجبت، تراها ــ أختها ــ فاجرة ويجب عليها أن تتوب...

وهند بدورها ملت تلك الحياة، التي تغوص بها في أوحال الرذيلة، ولكنه ــ ممدوح ــ ذلك الخرتيت الأسمر السمين، يتندر بمحاولاتها للصلاة، وتفكيرها في التوبة والعودة...

** وتعود هند بنا إلى الوراء، عندما تعرفت عليه بباريس في الستينيات، وقت أن ذهبا معا للدراسة هناك:

'' تعرّفت عليه في باريس في أوائل الستينيات .. فأحببته .. وكانت حياتي غير الطبيعية معه سلسلة من العذاب والإخفاق، تتخللها لحظات من المتعة التي يعقبها العذاب''..

وجاء ارتباطهما الفاشل متوافقا، مع عام هو الأفشل في تاريخ الأمة (الصراعي) مع أعدائها الدائمين، إنه عام 1967م عام النكسة والانكسار، ليصنع الكاتب هنا معادلا موضوعيا، مع نكستها وانكسارها...

وليست النكسة هي الإشارة السياسية الوحيدة بالنص، فلممدوح ــ كما جاء على لسان هند ــ قصة مع السادات، توجزها في قولها الآتي :

''اتهمك السادات ـــ وأنت الأستاذ بكلية الزراعة ـــ أنك من رموز الفساد الجامعي، اتهمك بإفساد الطلاب، وأخرجك إلى وظيفة إدارية بوزارة الزراعة''

ومن هنا نتعرف على سبب فصل ممدوح من عمله.

** للكاتب أسلوبه السلس، لا تفاصح ولا تعقيد، ولا تكبر على قارئه، تسلمك تراكيبه، ولغته، إلى بعضها البعض، منتقلا بين تقنيات القص المتنوعة، من سرد شائق ويسير، يصل أحيانا إلى كثيرا من التفاصيل، الموظفة لخدمة السياق، تصل في خصوصية تفاصيلها، إلى لون الشعر ، أو هيئته:

'' أسود وناعم ... قد تخللته بعض الشعيرات البيض ...''

أقول ذلك وأنا استرجع قول الكاتب المصري محمد قطب في أحد كتبه:

(ولقد وصلت القصة القصيرة على يد بعض كتابنا الشبان إلى حالة من الغموض غير المُشِفِّ)(2)

*وثمة صور المركبة منها مثلا :

''أحسست كأنه ـــ شعرها ـــ أسلاك هاتف عانت في العراء طويلاً من الصدأ والمطر وبيض الذباب!''

* كما برع الكاتب في استخدام الحوار، يتجلى ذلك في هذا المقطع الحواري المكثف، بين كل من طرفي ذلك الارتبـاط غـير الشرعي:

''ـــ أنت مازلت مراهقة يا هند! .. وماذا تريدين من الزواج أكثر مما نحن عليه الآن؟ .. ألا يكفي أننا نعيش معاً من ثلاثة عشـر عاماً؟

ـــ إننا نعيش هكذا من عام 67.. بلا عقد ولا شهود!

ـــ ألسنا متزوجين؟

ـــ نعم .. زواج بلا وثيقة زواج، ولا شهود، ولا فرح!

أخلى للتعجب مكاناً في تعابير وجهه السمين الأسمر المجعّد:

ـــ لقد فرحنا بما فيه الكفاية، طوال عقد ونصف من السنوات الجميلة!

ـــ لم أفرح أبداً.

ـــ أية أفكار مجنونة تُطاردك الآن يا هند؟!''

هكذا يرى ممدوح محاولة التصحيح جنونا...

** يسلط الكاتب على بطلته ـــ هند ـــ الضمير:

''إنها تشعر بعذاب لم تجربه من قبل.

يكاد يقتلها السؤال:

ـــ كيف عشتُ معه كل هذه السنوات بلا عقد زواج؟ ..

هل أصبحتِ بلا دين يا هند؟!! .. هل عشت معه كل هذه السنوات عاهرة؟! ..

ألا تخشين سخط الله وعذابه؟! .. وكيف عشتِ في هذه الغيبوبة مع هذا المجرم كل هذه السنوات؟''

كيف تحول في نظرها إلى مجرم، وإلى شيطان؟

مؤمنة هي بإمكانية العودة، ترى أن الخالق لا يرد سائلا، مستندة إلى الكثير من الآيات، ومن السنة ألم يقل الله سبحانه وتعالى '' وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان'' (3) تقول:

'' ـــ إن الله غفور رحيم''

وتتمادى في عشمها:

''ـــ هل يُقَدَّر لي أن أتوب .. وأن أُواظب على الصلاة .. وأذهب إلى الأراضي الحجازية لأحج أو أعتمر؟!!''

لكن الرجل على ما يبدو لم ولن يمكنها من تلك العودة المرجوة، مادام حيا!!

وهنا يتدخل الكاتب بحله الذي خطط له:

''.. في الصباح تسرب خط من الدماء من تحت الباب، وعلى باب الشقة كانت أصابع يد هند الخمس المضمّخة بالدم مازالت معلقة!



الفهرس